د. نبيل راغب

توابل الحب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه



تلألأت قاعتا الطعام والاستقبال فى فيلّا طارق بك بالثريّات المبهرة احتفالا بعيد زواجه العاشر . فقد اعتاد أن يقيم مع زوجته شريفة حفلا أول إبريل من كل عام يحضره الأصدقاء والأحبّاء والأقرباء . لكن الحفل فى العامين الأخيرين فقد كثيرا من إثارته وحرارته وأحس طارق بأنه أوشك أن يصبح مجرد تقليد سنوى ، برغم أن الوجوه النضرة لم تتغير ، بل إن مستويات الأناقة والفخامة ارتفعت عاما بعد عام ، وأصبح عدد لا بأس به من الحاضرين من نجوم المجتمع الراقى الذين يحضرون حفلات السفارات والمنتديات الأرستقراطية .

كانت الفيلّا تتكون من دورين ، وتقع فى مواجهة نادى الجزيرة وتحيط بها الخضرة من كل جانب . فالأشجار الباسقة تحنو عليها وتلاطفها ، فى حين يمتد بساط النادى السندسى خلف أسواره إلى مدى البصر . ولعل الأصوات الوحيدة التى يمكن سماعها هى أبواق بعض السيارات التى تقطع الطريق إلى الزمالك أو إلى كورنيش النيل . لكن الأصوات الدائمة طوال النهار هى زقزقة العصافير بين الأفنان . وفى الشتاء تتكفل الشمس الحانية بإرسال الدفء ، وفى الصيف تتكفل الأشجار بتلطيف الجو .

أول إبريل . الربيع ينفث أنفاسه مع نسمات الدفء . مع حلول الثامنة مساء تسللت مصابيح الشارع المضيئة بين أوراق الشجر لتنثر على جنباته بقعاً ضوئية كشفت بعض سيارات العشاق التى احتمت بالأشجار بعيدا عن العيون . هبت رياح خفيفة تجاوب معها حفيف

الأوراق . يكاد الصمت يطبق على الموجودات ، لكنه صمت مشحون بأحاسيس الربيع والحب والإخصاب والعشق والرغبة النابضة بسر الكون .

توقفت العربات الفارهة الواحدة تلو الأخرى أمام الباب الحديدى لفيلا طارق بك . وفى مدخل قاعة الاستقبال كانت شريفة وزوجها طارق يستقبلان الأحبَّاء والأصدقاء بالأحضان والقبلات . ارتدت شريفة رداء سهرة أسود مرصَّعاً ببعض البقع الذهبية الدقيقة فى حين أرسلت شعرها الأسود الفاحم كى يغطى ظهرها الأبيض الذى كشف عنه الرداء . فى حين وضعت وردة ذهبية صغيرة على الجانب الأيسر من رأسها ، وازدان معصمها بساعة ذهبية نفيسة . أما عيناها الواسعتان اللامعتان فكانتا توحيان بالحيوية والتجدد برغم لمحة حزن دفين تومض بين الحين والآخر .

كان طارق متألقا بدوره . بدت ملامح أصله التركى أو الشركسى فى شعره الأصفر وبشرته البيضاء وعينيه اللتين تجمعان بين اللونين البنى والأزرق . بدا فارعا فى حلَّته الزرقاء الداكنة وقميصه الأبيض ورباط عنقه الأحمر وهو يستقبل ضيوفه مع زوجته . لكن مسحة من القلق الخفيف كانت تغطى وجهه كلما اختلس النظر إلى زوجته وشعر بحزنها الدفين الذى لا يدرى له سببا . لكنه تمنى أن يغير الحفل من هذا الإحساس الذى تمنى أيضا أن يكون عابرا .

وصلت نشوى فى عربتها وسرعان ما صعدت درجات السلم القليلة حيث استقبلها طارق وقبَّلتها شريفة . كانت تنافس ابن عمها طارق فى خصلات شعرها الذهبى وبشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين وقامتها الفارعة التى بدت أطول من قامة شريفة . تزوجت مرتين ، كانت الأخيرة من الدكتور محسن طبيب العظام وأبرز أعضاء جماعة النادى . لكنها

سرعان ما طلقت منه ، ولم يبد أحدهما سببا لهذا الطلاق الذى لم يؤثر على صداقتهما ولقاءاتهما العادية فى النادى . كانت نشوى منهمكة فى عملها كمديرة للعلاقات العامة فى شركة الاستيراد والتصدير التى يملكها طارق ، فى حين كان محسن يقضى معظم وقته فى المستشفى الخاص الذى أنشأه مع بعض زملائه .

وقفت نشوى تداعب شريفة التى ركزت عينيها على رداء السهرة الأبيض الخفيف الذى ارتدته نشوى والذى لم تسترح له شريفة لأنها لم تستطع التفريق بين لونه ولون بشرتها . لم تجد شريفة ما تقوله فران الصمت باستثناء ضحكات وتعليقات الجالسين فى قاعة الاستقبال . وسرعان ما جاء كريم ونيرمين والتفا حول نشوى التى أخرجت من حقيبتها الفضية الصغيرة ساعة لكريم وخاتما لنيرمين جعلا السعادة تنير وجهيهما . كان كريم يناهز التاسعة من عمره لكنه يبدو أكبر من سنّه ويشبه أمه فى شعره الأسود وعينيه الواسعتين السوداوين ، أما نيرمين التى تناهز السابعة من عمرها فهى تكاد تكون صورة طبق الأصل من أبيها . كانت تقفز بين المدعوين كفراشة بين الزهور ، لكن بمجرد وصول نشوى لم تبعد عنها لحظة واحدة . وكانت نشوى تسعد لاهتمام الصغيرة بها ، وهى التى لم تكن لتستطيع العيش دون اهتمام الآخرين بل وتكالبهم حولها تكالب الفراش حول الضياء .

وصل الدكتور محسن . يناهز الأربعين من عمره . قمحى اللون . ذو شارب دقيق . متوسط الطول ، ممتلىء القوام ، رياضى المظهر ، خشن الشعر ، لا يهتم كثيرا بأناقته . لكنه يجمع بين المرح والجدية فى توليفة لطيفة من قوة الشخصية . حيًّا الجميع مبتسما ضاحكا مداعبا إياهم . وبادلته نشوى دعابة بدعابة وكأنهما لم يكونا مطلّقين فى يوم من الأيام .

وبوصول الدكتور محسن التأم شمل الجماعة كلها ونهض الجميع

للالتفاف حول البوفيه الطويل الذي نصب في قاعة المدخل فى حين صدحت الموسيقى العذبة التى ذكرت طارقاً بأيام حبه الأولى لشريفة . أخرج من جيبه علبة صغيرة من القطيفة الحمراء وفتحها وأخرج منها خاتما سوليتير وضعه فى أصبع زوجته مقبّلا إياها بين تصفيق الحاضرين فى حين كانت نظرات نشوى لشريفة تزخر بإحساسات غامضة من الغيرة والتظاهر بالسعادة ، نظرات لم يلحظها سوى محسن . كان الجميع منهمكين فى مشاهدة الهدية ثم تناول ما لذ وطاب مما زخر به البوفيه الفاخر . ضحك محسن وقال بصوت عال :

ـــ إذا كان أول أبريل هو الكذبة التى يشترك فيها العالم كله ، فإنه الحقيقة الرائعة التى بدأت بها حياة طارق وشريفة .

أجاب طارق ضاحكا :

ـــ ألم أقل لك مراراً إنك أخطأت طريقك إلى الطب .. كان من المفروض أن تصبح شاعرا !!

علّق محسن بنفس المرح والبهجة :

ـــ الطب لا يتعارض مع الشعر .. وليست هناك كلية يتخرج فيها الشعراء ..

قاطعه طارق :

ـــ أعرف رأيك مقدما .. إذا كان الطب علاج الجسد فالشِّعر شفاء للروح ..

قالت نشوى وكانت تقف فى الجانب المواجه لطارق وشريفة :

ـــ إن هدية طارق لشيرى أجمل من أى شِعر ..

انتهى محسن من تناول كعكة قائلا :

ـــ إن الشعور الكامن وراء الهدية أثمن منها مهما كانت ثمينة ..

ابتسمت شريفة قائلة وهى تضع كأسها على المائدة :

ـــ وجودكم اليوم أعظم هدية لى ولطارق ..

انطلق محسن مقهقها ومصفقا :

ـــ الله .. الله على الكلام الجميل .. تصفيق حاد وهتاف منقطع النظير !!

صفّق الجميع واختلطت ضحكاتهم بتعليقاتهم . وأصرَّ محسن على بدء الرقص فى قاعة الاستقبال بعد الانتهاء من البوفيه ، بعد أن جعل الإضاءة خافتة والموسيقى صادحة بحيث احتوت أصوات الحاضرين فعجزوا عن سماع بعضهم بعضا . صاح محسن :

فليفتتح العريس والعروس الرقص ..

نظرت إليه شريفة بخجل وقالت بصوت لم يسمعه أحد :

ـــ لم نعد بعد صغاراً لمثل هذه الأشياء !!

لم يسمع محسن ما قالت لكنه ذهب إلى طارق وحاول جذبه من مقعده قائلا :

ـــ هيا يا عريس .. الراقصون والراقصات فى انتظار قص الشريط !!

لكن طارقاً كان قد سمع ما قالته زوجته فقاوم محسناً برقة . عندئذ تركه وهو يقول ضاحكا :

ـــ يبدو أن العجز قد أصابكما فى سن مبكرة .. سأطلب من الجيل الجديد استئناف المسيرة ..

قام محسن وأمسك بيد كل من كريم ونيرمين وجذبهما من ركنهما وأوقفهما فى منتصف الحلبة . سيطر الخجل على الطفلين اللذين احمرَّ وجهاهما لكنه لم يتراجع مشبكا أيديهما ، دافعا إياهما إلى الرقص دفعا . ومع إيقاع تصفيق الحاضرين رقص الطفلان مقلّدين مشاهد السينما والتليفزيون وسط ضحكات الجميع .

ومع تصاعد سخونة الموقف جذب طارق شريفة من يدها وراقصها

وسرعان ما انضم الراقصون والراقصات حولهما . والكل يداعب الطفلين .

فى الأيام الخوالى كانت الكهرباء تسرى فى عروق طارق كلما التصق بشريفة فى حلبة الرقص . تذكّر أيام الحب والخطبة والسنوات الأولى من الزواج ، حتى بعد ميلاد كريم . لكن النشوة كانت تفلت من يده عاما بعد عام . إنه الآن يلتصق بشريفة ويحيطها بذراعه ، وهى تتحرك مع خطواته كأنهما يمثلان مشهدا سينمائيا . هل هذا يحدث لكل الأزواج بحكم العادة ؟! إنه لم يفتح هذا الموضوع مع أحد ، فهو لم يتعوّد الكلام فى حياته الخاصة . لكن إلى أى مدى يمكن أن يستمر هذا الفتور الذى يفقد الأشياء طعمها ؟! إنه يحب شريفة ولا يستطيع الاستغناء عنها يوماً واحدا ، ومع ذلك فالرغبة بينهما سرعان ما تنطفىء . إنها أنثى فاخرة ، لكن يبدو أنه أصبح مثل الثرى النهم الذى اعتاد التهام أطايب الطعام حتى زهدتها نفسه فى النهاية . هل يعقل أن يكون الحرمان أحيانا نعمة من نعم الله ؟!

لم تشارك نشوى فى الرقص بل قبعت فى ركنها تراقب الراقصين والراقصات عامة وشريفة وزوجها خاصة . أما محسن فكان منطلقا بين الجميع يداعب كل من يأتى فى طريقه ، لكن نشوى لم تغب عن عينيه وهى تدخن بشراهة يعرفها جيدا ويتخذ منها مؤشرا لحالتها النفسية . اقترب من طارق وشريفة وقال ضاحكا :

ــ إنكما ترقصان كما لو كنتما تؤديان واجباً تريدان الانتهاء منه بأسرع ما يمكن !!

خرج طارق من خواطره على صوت محسن فى حين قالت شريفة له :

ــ إنك تريد المستحيل .. فأيام المراهقة لن تعود !

علّق ضاحكا :

ـــ إننى أدعو الله ألا يحرمنى من المراهقة حتى أموت ..

ضحك طارق قائلا :

ـــ إنك لا تطلب المستحيل .. فالمراهقة شىء طبيعى بالنسبة لك ..

وبمجرد توقف الرقص استأذنت نشوى . وعندما دقت الساعة منتصف الليل كان عقد الحاضرين قد انفرط ، وذهب كريم ونيرمين إلى فراشيهما ، فأحس طارق بوحدة غريبة . ذهب إلى غرفة النوم التى سبقته إليها شريفة . هناك خلعت رداء السهرة وارتدت قميص نوم طويلا أبيض ، بدا جسدها تحته جميلا دقيقا جذابا ، لكن وجهها كان مرهقا إرهاقا نمت عنه بعض الهالات الداكنة حول عينيها . قال طارق وهو يرتدى بيجامته الحريرية الحمراء :

ـــ كانت حفلة لطيفة .. كل سنة وانت طيبة يا روحى ..

أجابت شريفة وهى ترخى جسدها على السرير :

ـــ وانت طيب يا حبيبى ..

ثم تثاءبت وفركت عينيها فقال طارق متسائلا :

ـــ يبدو عليك الإرهاق يا حبيبتى ؟!

ـــ منذ السابعة صباحا وأنا أشرف على إعداد البوفيه ..

ـــ سلمت يداك .. حاز الطعام إعجاب الحاضرين ..

استرخى طارق بجوارها وضمها إلى صدره مقبلا شفتيها بحنان وحرارة . أغمضت عينيها فناداها طارق بصوت هامس رقيق :

ـــ شيرى !!

قالت بصوت يغالب النعاس الذى أطبق على جفونها :

ـــ نعم يا حبيبى ؟!

أجاب فى استسلام :

ــ تصبحين على خير ..

وهى على أهبة الخوض فى عالم النيام :

ــ وأنت من أهله يا حبيبى ..

أطفأ طارق الأباجورة الحمراء الخافتة لكنه ظل محملقا فى الظلام . لم يزر النوم جفونه . تسلل إلى أنفه عطر شريفة التى سمع تنفسها هادئا بطيئا بجواره . إنه نفس العطر الذى يحبه والذى استخدمته فى ليلة زفافها . لا شك أنها تعطرت به هذه الليلة بوحى من غريزة الأنثى ، لكن سلطان النوم تغلب على غريزة الأنثى . هل هو الإجهاد ؟! هل هو التعود ؟! هل هو الملل ؟! هل هو الشبع ؟! لا يعرف . كل ما يعرفه أنه يعشق زوجته التى تبادله الإحساس نفسه . ومع ذلك هناك طبقة رقيقة غريبة غامضة من الصدأ تنتشر فوق سطح حياتهما الزوجية ، لا يعرفان نوعيتها ولا يدركان كنهها لكنها تنتشر برغم رغبتهما الأكيدة فى إزالتها حتى تعود حياتهما إلى بريقها من جديد . البريق أو البرق الذى بهر عينيه منذ عشر سنوات .

يقولون « ما أشبه الليلة بالبارحة » ! لكنه يقول « ما أبعد الليلة عن البارحة » ! فى تلك الليلة منذ عشر سنوات ازدانت القاعة الكبرى فى الفندق العريق بأضواء الثريات وباقات الزهر . دقت الدفوف وأشعلت الشموع وتمايلت الراقصة وأكل المدعوون وشربوا وضحكوا . كانوا يودون لو استمر السهر حتى مطلع الفجر ، وكان يود هو وشريفة أن ينفض الجمع بأسرع ما يمكن حتى يتخلصا من الضجيج الذى يشعرهما بالعزلة والوحدة ، فى حين أنهما فى خلوتهما يملكان العالم كله : الماضى والحاضر والمستقبل .

كانت ليلة زفافهما تميل إلى البرودة ، فقد ارتدى معظم المدعوين ملابس ثقيلة . لكن رداء الزفاف الخفيف العارى من الصدر والظهر الذى ارتدته شريفة ، وحلته الباريسية المصنوعة خصيصا لتلائم مناخ ما بين الفصول ، لم يمنعا إحساسهما بالحر وعرقهما المتصبب ، مما أثار قفشات بعض الأقرباء الخبثاء .

وعندما تجاوزت الساعة منتصف الليل بساعة ، كانا فى غرفتهما بالفندق المطل على النيل . جلست شريفة على حافة سريرها برداء زفافها وهى تنظر إلى السجادة تحت قدميها بعينين مبتسمتين ووجنتين طغت حمرة الخجل فيهما على حمرة الزينة . جلس طارق بجوارها يحوطهما صمت مشحون بنبضات الرغبة التى انطلقت أخيرا من عقالها ،بعد أن كانت مقتصرة على النظرات والابتسامات واللمسات والأحضان والقبلات . قال لها وهو يحتويها بين ذراعيه :

ـــ هل سنظل جالسين هكذا ولم يبق على بزوغ الفجر أكثر من ثلاث ساعات ؟!

لم ترد بل اتسعت ابتسامتها وهى تركز بصرها على لوحة على الجدار أمامها تصور النيل محاطا بأشجار ضاربة جذورها على جانبيه وتميل عليه كأنها تقبله . قال طارق :

ـــ إن الأشجار لم تخجل من أن تقبل النيل علنا !!

ضحكت ضحكة شبه صامتة وقالت بصوت هامس :

ـــ إن الإضاءة فى الغرفة أقوى من اللازم ..

ـــ أريد أن أمتع نظرى بجمالك ..

ـــ إذاً سنظل جالسين هكذا حتى بزوغ الفجر ..

نهض طارق ضاحكا صوب المفتاح الكهربى وهو يقول :

ـــ إذاً مرحباً بالظلام .. يكفينى نورك .

أطفأ النور ولم يبق غير ضوء الأباجورة الصغيرة الحمراء ، الذى ألقى بحمرته على رداء الزفاف الأبيض فأحال شريفة إلى لوحة من الحلم الحى . جلس بجوارها مرة أخرى . قبلها وهو يفك طرحتها لكنها شدت شعرها معها فساعدته شريفة على فكها . وسرعان ما ذاب الخجل تحت سخونة اللمسات والتهاب القبلات ، وبدأت أروع ملحمة فى حياة طارق . تلك الملحمة التى ظلت تهدأ وتمور ، تكمن وتفور ، تخمد وتشتعل حتى سمعا دقات إفطار الصباح على الباب . وبعد تناول الإفطار ناما حتى مغرب ذلك اليوم ، نوما لم يجربا أعمق منه فى حياتهما .

استيقظ طارق من خواطره على لسعة أسى عندما تذكَّر أن الفندق العريق الذى شهد أروع ملحمة فى حياته ، قد تم هدمه لإقامة فندق حديث مكانه . حتى الأحجار الجميلة والجدران المطلية بالذكريات لم يرحمها الزمن . لكن الذكريات فى وجدان صاحبها لا تزال تتحدى الزمن .

استدار طارق واحتوى شريفة بين ذراعيه لكنها تململت فى نومها وتفوهت بألفاظ لم يتبين طارق حروفها ، لكنه أدرك أن رغبتها فى النوم أقوى من أية رغبة أخرى .

أطفأ ضوء الأباجورة الصغيرة الحمراء وسبحت الغرفة فى ظلام دامس . لكن النوم بخل عليه بزيارته . وعندما بدأ يغفو سمع فى الخارج مواء قط ذكر يطارد أنثاه كالمسعور وهى تصرخ مستغيثة أو متمنعة كى ينالها بعد لأى . اخترق المواء الحاد أذنيه فلم يتمالك سوى أن يضع الوسادة فوق أذنيه لعله يغفو مرة أخرى .

كان طارق منكبا على مكتبه فى شركته التى يديرها للاستيراد والتصدير عندما سمع طرقات خفيفة على الباب المبطن بالجلد من الداخل . وقبل أن يسمح للطارق بالدخول فتح الباب ودخلت نشوى بقامتها الفارعة مرتدية حلة من الجينز الأزرق تحتها بلوزة حمراء ، وشريط أزرق فاتح جمعت به خصلات شعرها الذهبى . ابتسم طارق وقال لها وهى تجلس على الكرسى القريب منه :

ـــ أهلا نشوى .. هل قائمة السلع المطلوب استيرادها جاهزة بأسماء الشركات والأسعار ؟!

أجابت نشوى وهى تقدم إليه القائمة مركزة عينيها على عينيه :

ـــ هذه هى القائمة .

تناولها طارق وجرت عيناه على بنودها الواحد تلو الآخر ، فى حين لم ترفع نشوى عينيها عنه . وعندما انتهى من الاطلاع لم يبد عليه الارتياح فتساءلت نشوى :

ـــ هل هناك خطأ ؟!

ـــ لا .. القائمة متقنة ودقيقة للغاية .. لكن المشكلة أننى سئمت هذه النوعيات التى نصر على استيرادها دائما ..

قالت نشوى بلهجة رجال الأعمال :

ـــ إنها الأصناف التى تعود على الشركة بالربح الوفير .. وهو الهدف لكل شركة ..

ـــ معك حق فى هذا .. لكن الربح الوفير لم يعد قضيتى

الأساسية .. فالحمد لله كل شيء ميسر ومتوفر .. ولذلك أريد استيراد ما أشعر أنه يمس حياة أبناء وطنى فى صميمها ..

ـــ رجل الأعمال الحقيقى يتساءل دائما : هل من مزيد ؟! مهما كان ربحه وفيرا .. ولا يهم إذا كان يتاجر فى الكماليات أو الضروريات !

ـــ فى اعتقادى يا نشوى أن كل مجهود يقوم به الإنسان يجب أن يجمع بقدر الإمكان بين مصلحته الذاتية ومصلحة الآخرين ..

ـــ لقد علمتنى الحياة أن يرعى الإنسان نفسه أولا وأخيرا ..

ـــ المصلحة الخاصة لا يمكن أن تنفصل عن المصلحة العامة لأنها جزء منها ..

ـــ المصلحة العامة مسئولية الدولة أما المصلحة الخاصة فمسئولية الفرد ..

ـــ والدولة ليست كيانا مستقلا عن كيان الفرد بل هى تتكون من مجموع الأفراد ..

ـــ من يسمع كلامك يظن أننا نستورد هذه السلع لأنفسنا فقط .. فى حين أننا نستوردها لمصلحة الآخرين أيضا ..

ـــ لكن هؤلاء الآخرين يستطيعون الحصول عليها من الخارج وخاصة أنهم يسافرون دائما سواء للسياحة أو للعلاج أو لأى سبب آخر ..

ـــ ما يدهشنى حقا أنك تنتمى لهؤلاء الآخرين .. ومع ذلك فإنك تقول مثل هذا الكلام العجيب ..

ـــ إننى الآن أبحث عن الإثارة فى كل شيء .. حتى فى عملى .. ولذلك فإننى أريد أن أجرب أفكارا جديدة حتى لو كانت نوعا من المغامرة .. فقد سئمت هذا الروتين القاتل ..

سعدت نشوى عندما نطق طارق بكلمة « الإثارة » فاتخذت منها مؤشرا لتغيير مجرى الحديث :

ــ الإثارة مطلوبة فى حياتنا الخاصة .. أما فى مجال العمل فإنها يمكن أن تدمر كل شيء .. وبالمناسبة كان حفل أمس مثيرا للغاية ..

ضغطت نشوى على كلمتى « مثيرا للغاية » وهى تركز عينيها على عينى طارق الذى تشاغل بتقليب بعض الأوراق على مكتبه ثم قال :

ــ إنها مجاملة رقيقة منك ..

ــ إننى أقول ما أشعر به حقا ..

تذكر طارق الليلة الماضية فقال دون أن يعى ألفاظه جيدا :

ــ بعد عشر سنوات من الزواج لا بد أن تصبح مثل هذه الحفلات مجرد عادة سنوية ..

ــ الحمد لله .. فقد منحك الله نعمة الاستقرار .. أما أنا فقد فشلت سواء مع زوجى الأول مصطفى أو مع زوجى الثانى محسن .

ــ هناك فرق كبير بين الاستقرار والملل .. لكن السؤال الذى يدهشنى ويثير حيرتى حتى الآن : لماذا وقع الطلاق بينكما على الرغم من أننى أعرفكما جيدا ؟! وأعرف أن مهمة التفاهم بينكما ليست عسيرة ؟!

ــ كل شيء قسمة ونصيب !!

ــ ألا يمكن إعادة المياه إلى مجاريها مرة أخرى ؟!

ــ لا أعتقد ولا أريد .. وأظن أنه لا يريد أيضا ..

لاحظ طارق ابتسامة غريبة غامضة ارتسمت على شفتى نشوى وعينيها عندما قالت هذا . فلم يملك سوى أن يسألها :

ــ أراك تبتسمين ؟!

ــ تذكرت أيام الطفولة السعيدة عندما لعبت معك دور العروس وأنت

العريس .. لكن النصيب جعل كل واحد منا يسير فى طريق ..
أحس طارق بالمنطقة الوعرة التى يمكن أن يدخل فيها مع نشوى فحاول تدارك الأمر :
ـــ الماضي لا يعود .. المهم أن نرعى حاضرنا ومستقبلنا ..
ـــ لقد جرّبت حظى .. وأعتقد أن المستقبل بالنسبة لى لا وجود له ..
ـــ لا تكونى متشائمة هكذا .. فأنت جميلة ومتعلمة .
قاطعته ضاحكة :
ـــ وفوق كل ذلك .. ابنة عمك !!
ـــ لكن هذا ليس جوازا للمستقبل ؟!
ـــ كل شيء قسمة ونصيب .. حفظ الله لك شريفة .. فهى خير زوجة يمكن أن تسعدك ..
قال طارق وفى صوته رنة أسى التقطتها نشوى :
ـــ منذ حوالى سنتين وحالات من الكآبة تنتابها ..
سألته فى شبه مقاطعة :
ـــ دون سبب ؟!
ـــ دون أى سبب !!
ـــ شيء عجيب !! فكل شيء متوفر لها وتحت أمرها !!
ـــ حاولت أن أخرجها من هذه الحالة بأن تشغل نفسها بأى عمل أو وظيفة .. إذ لا يعقل أن تقضي حياتها بين البيت والنادى .. لكن يبدو أن تعودها على هذه الحياة أفقدها أية رغبة فى العمل ..
ـــ وهل حاولت بالفعل ؟!
عملت لمدة شهرين بقسم العلاقات العامة بالجامعة الأمريكية ، لكن إيقاع العمل هناك كان أسرع منها بكثير فلم تحتمله ..

ـــ بالإضافة طبعا إلى عدم إحساسها بعدم حاجتها إلى المرتب !!
ـــ المرتب ليس الهدف .. فأنت تعملين ولست فى حاجة إلى مرتبك ..
ـــ لأننى تعودت على العمل منذ تخرجى فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية .. أما هى فلم تجرب العمل .. كذلك لم تكن لها هواية محددة فى الكلية .. أما أنا فكنت أعشق التمثيل ولا زلت لولا تقاليد العائلة ..

قال طارق وقد سرح ببصره خارج النافذة على يمينه :
ـــ فعلا .. لا بد أن يشغل الإنسان نفسه بشيء وإلا أصيب بالجنون .. أو انتهى بالانتحار ..
ـــ على كل حال .. يكفيها مسئولية زوجها وأبنائها .. أما أنا فمسئولة فقط عن نفسى .. فقد حرمت نعمة الزواج والإنجاب ..

شعر طارق بالأسى والعطف عليها فقال :
ـــ لا يعقل يا نشوى أن تعيشى بمفردك فى شقة واسعة مثل شقتك ..

أجابت متخابثة :
ـــ لا تنس أن دادا أم سيد تقوم على خدمتى !
ـــ لكنها امرأة عجوز .. وأنت فى حاجة إلى رجل يرعاك !!
ـــ وأين هو هذا الرجل ؟!
ـــ محسن !
ـــ لا داعى لهذه السيرة مرة أخرى ..

تأكد طارق من إصرار نشوى على سد كل المنافذ المؤدية إلى الحديث عن محسن . عندئذ قام بتوقيع قائمة السلع المطلوب استيرادها وقدمها إلى نشوى قائلا :

ـــ وهو كذلك .. أرجو إتمام اجراءات الاستيرادبحيث تجمع بين السعر الرخيص والصنف الجيد ..

ضحكت نشوى قائلة :

ـــ هكذا يتكلم رجال الأعمال .. تحت أمرك ..

تناولت القائمة واستأذنت خارجة فى حين انعقدت مقارنة داخل طارق بين زوجته وابنة عمه .

استيقظت شريفة من النوم على صوت طارق وهو يودعها ذاهبا إلى عمله . ردت عليه والنعاس يثقل جفونها لكن بمجرد خروجه استغرقت مرة أخرى فى ممارسة رياضتها المفضلة ، برغم أن الساعة كانت قد تجاوزت التاسعة وبرغم أنها نامت مبكرة فى الليلة الماضية .

دق جرس المنبه على الكومودينو الملاصق للسرير فمدت يدها دون أن تستيقظ وأوقفت رنينه . دخلت دادا سنية محاولة إيقاظها لكنها نهرتها دون أن تفتح عينيها ، فتراجعت سنية وخرجت مسرعة من غرفة النوم . لكنها عادت بعد ما يقرب من ساعة وهى تحمل التليفون فى سلة فضية ، وأعادت الكرَّة ، وعندما همت شريفة لنهرها عاجلتها سنية بالتليفون :

ـــ الست الكبيرة على التليفون ..

جلست شريفة فى فراشها وعندما وقعت عيناها على المنبه الصينى الأبيض ، اتسعت دهشة وخجلا فقد كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة . أمسكت السماعة وقالت متلعثمة :

ـــ أهلا .. ماما .. أنا متأسفة للغاية .. استغرقنى النوم فتأخرت عن ميعادى .. سأحضر بأسرع ما يمكن ..

توقفت شريفة لحظة عن الكلام منصتة إلى أمها ثم قالت :

ـــ أهلا بك يا ماما .. فى انتظارك .. مع السلامة ..

وضعت شريفة السماعة على التليفون الذى كانت سنية لا تزال تحمله وقالت لها غاضبة :

ـــ لماذا لم توقظينى يا سنية ؟! ألم أنبهك إلى هذا أمس ؟!

دافعت سنية عن نفسها بحرارة :

ـــ لقد حاولت يا سيدتى .. لكنك صرخت فى وجهى ..

تداركت شريفة الأمر :

ـــ وهو كذلك .. جهزى لى الحمام ..

خرجت سنية لتنفيذ الأمر فى حين تثاءبت شريفة وهى تغادر الفراش . انتهت من الحمام بسرعة على غير عادتها ، فلا يصح أن تصل أمها وهى فى الحمام برغم أنه متعتها الوحيدة فى حياتها ، حين تسترخى فى البانيو الدافىء فى الصيف ، والساخن فى الشتاء ، تحيط جسدها بالعطور الباريسية التى اختلطت بمائه ، والتى تصاعدت مع بخاره . كانت تحب الاسترخاء فى أول الأمر ، لكن يبدو أنها لم تعد تفرق بين الاسترخاء والخمول .

خرجت من الحمام ملفوفة فى روب أبيض . انتهت بسرعة من عملية الزينة أمام المرآة ، وتناولت كوبا من الشاى مع بعض قطع البسكويت الجاف لأنها لاحظت أن وزنها زاد فى الشهور الأخيرة . ارتدت فستانا أبيض خفيفا ، يناسب سخونة مايو المبكرة وجلست فى الشرفة التى تطل على سور نادى الجزيرة تطالع صحف الصباح وبعض المجلات الأسبوعية . كانت تكتفى بقراءة العناوين الرئيسية ومشاهدة الصور والكاريكاتير ثم سرعان ما تلقى بها فى سأم . العصافير تزقزق وتقفز من شجرة إلى أخرى ، يختلط ضجيجها الجميل بهديل بعض الحمام الذى لا يرى وسط أوراق الأشجار التى اكتسبت اخضرار الربيع الداكن .

سمعت شريفة ضحك بعض الأطفال . نظرت أسفل الشرفة فوجدت زوجة عبد الستار البواب تجلس مع أطفالها الخمسة فى أحد أركان الحديقة تقوم بتشذيب بعض الحشائش والأوراق برغم بطنها الذى تكور

والذى ينبىء عن ميلاد قريب . تعجبت شريفة من نفسها عندما شعرت بالغيرة من هذه الفقيرة المعدمة التى تعمل بهذا الجد والحيوية ، كأنها تقوم بتنسيق الجنة فى حين يقفز أطفالها حولها كالملائكة برغم ملابسهم التى لا تمت إلى البياض بصلة . إن الملل والسأم والضجر والكآبة لا تعرف طريقها إلى قاموس حياتها . قالت لها ذات مرة إنها لا تدرى كيف يمر اليوم فى حياتها كلمح البصر بحيث تجد نفسها فى نهايته ملقاة فى فراشها لا تشعر بشىء حتى مطلع فجر اليوم التالى .

* * *

توقفت عربة مدام عنايات أم شريفة أمام الرصيف وأسرع السائق يفتح الباب لها ، فخرجت سيدة وقور ترتدى فستانا كحليا ، ينبىء مشيبها عن تجاوزها الستين ، لكن حيويتها تدل على تمسكها بالحياة . صعدت السلم فى رشاقة الأربعين فى حين هبطت شريفة لاهثة وسرعان ما احتضنت أمها عند المدخل مرحبة بها بحرارة شديدة ، ثم صعدتا إلى الدور الثانى حيث طلبت الأم الجلوس فى الشرفة التى تعشق مناظرها الخلابة . وعندما جلستا قالت شريفة :

ــ أهلا ماما .. لك وحشة كبيرة ..

قالت الأم بجدية باسمة :

ــ قررت أن أقضى اليوم معك ومع طارق والأولاد ..

ــ القلوب عند بعضها .. كنت أنوى زيارتك اليوم كما اتفقنا كى نعود سويا إلى هنا ..

ــ عندى .. عندك .. واحد يا حبيبتى ..

ــ وكيف حال أختى أمل وزوجها وأولادها ؟!

ــ لم أستمتع بزيارتى هذه المرة لباريس لأنها كانت قلقة جدا . فقد

رشح زوجها للانتقال إلى سفارتنا فى بيرو مع ترقيته إلى درجة سكرتير أول ..

ـــ طبعا .. ليس هناك مكان فى العالم مثل باريس !!

ـــ اسألينى أنا .. عشت فيها سبع سنوات مع المرحوم أبيك عندما أشرف على مكتب الجامعة العربية فى باريس .. سبع سنوات بالعمر كله .. وكل مرة أزور فيها أمل أذهب إلى نفس الأماكن القديمة الحبيبة ..

ـــ إننى أفكر فعلا فى زيارتها لأنها أوحشتنى كثيرا .. فربما لا أستطيع زيارتها إذا انتقلت فعلا إلى بيرو .. كما أننى أريد شراء بعض الملابس والعطور ..

قالت الأم وهى تتناول رشفة من الشاى الذى أحضرته سنية :

ـــ عين العقل .. إن تغيير الهواء والمناظر لا بد أنه سيفيدك بدلا من حياة الكسل والنوم هذه ..

ـــ إن زيارة مثل هذه مجرد مُسكِّن مؤقت .. لأننى بمجرد عودتى سأعود مرة ثانية إلى الملل والكآبة ..

قالت الأم وهى تشعل سيجارة بمبسم ذهبى وكلها قلق على ابنتها :

ـــ بصراحة يا شيرى .. شعرت بالقلق عليك عندما أتيت مع طارق والأولاد لاستقبالى فى المطار بعد عودتى من باريس ..

تساءلت شريفة تساؤلا مشحونا بالتوتر :

ـــ ما الذى جعلك تشعرين هكذا يا ماما ؟!

ـــ قلب الأم يا شيرى .. لم أر اللمعان الذى تعودت رؤيته فى عينيك .. وكنت أظنه الملل الذى يعانى منه معظم الناس .. لكنك الآن تضيفين إليه الكآبة أيضا !!

ـــ لا تشغلى بالك يا ماما .. إنها أعراض طبيعية للغاية ..

ـــ الكآبة لا يمكن أن تكون من الأعراض الطبيعية .. فهى تفقد الإنسان طعم حياته ..

ـــ والحل ؟!

ـــ هذا ما أتيت كى أحدثك فيه خصيصا ..

ـــ هل ساءت حالتى لدرجة أن ملاحظتها أصبحت أمرا سهلا ؟

ـــ إنها عين أصابتك يا حبيبتى !

ذهلت شريفة لرأى أمها المفاجىء لكنها دارت ذهولها بابتسامة ثم قالت ضاحكة :

ـــ كيف عشت فى باريس سبع سنوات .. وشاهدت معظم بلاد العالم .. ثم تؤمنين بالعين والحسد ؟!

أصرت الأم على رأيها بتساؤل جديد :

ـــ وبماذا تفسرين الكآبة التى أصابتك .. وأنت لا ينقصك شىء ؟! المال والجمال والمركز الاجتماعى والأسرة السعيدة ؟!!

تساءلت شريفة محاولة تحويل جدية أمها إلى دعابة :

ـــ وهل تعتقدين أن عين الحسود قادرة على تدمير حياة الناس ؟

ـــ من المحتمل أن تكون عين حسود .. ومن المحتمل أن يكون هذا الحسود قد عمل لك « عملا » .. ولا بد من فك هذا العمل !

أدركت شريفة أن أمها تتكلم عن إيمان عميق بما تقوله ، كما لو كان حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل ، مما أثار حب استطلاعها كى تصل مع أمها إلى كل ما تريد قوله . سألتها مستكشفة :

ـــ وهل تريدين منى أن أتردد على الدجالين والمشعوذين مثلما يفعل الجهلاء ؟!

ـــ وهل يعقل مثل هذا الكلام ؟! سأذهب معك إلى البروفيسير باتع كى يصف لك العلاج المناسب .. فعلاجه لا يخيب أبدا ..

قاطعتها شريفة وقد شعرت بالإثارة تجرى فى عروقها :
ـــ البروفيسير من ؟!
ـــ البروفيسير باتع .. دكتوراه فى علم الأرواح وخريج جامعات فرنسا .
ـــ لم أسمع عنه من قبل ؟!
ـــ إنه ليس فى حاجة إلى دعاية أو إعلان .. بل لا بد من الحجز وانتظار الدور الذى قد يأتى بعد أسبوع أو حتى شهر ..
ـــ إلى هذا الحد ؟!
ـــ وأبعد من هذا .. فقد كانت تيتى ابنة مدام أزهار على وشك أن تطلَّق من زوجها بسبب سوء تفاهم مستمر بينهما لم يستطع كل منهما تفاديه .. وبمجرد أن ذهبت إلى البروفيسير باتع وترددت عليه ثلاث مرات عادت المياه إلى مجاريها وهى الآن فى منتهى السعادة ..
ـــ وما العلاج الذى وصفه لها ؟!
ـــ لم تقل .. ويبدو أنه أوصاها بعدم التحدث فى هذا الموضوع .. لكن النتيجة هى كل ما تهمنا ..

اجتاحت شريفة موجة من الإثارة وحب الاستطلاع حرَّكت بعض طبقات الصدأ داخلها ، فقررت أن تستكشف هذا الموضوع ليس إيمانا به ، وإنما حبًّا فى ممارسة إحساس الإثارة الذى افتقدته كثيرا . تساءلت :

ـــ وماذا عن طارق ؟! إنه لا يطيق أن يسمع شيئا عن هذه الخزعبلات !! فما بالك لو عرف أن زوجته تتردد على البروفيسير باتع هذا ؟

قالت أمها فى حسم وهى تشاهد بعض الأجانب الذين يلعبون التنس خلف السور الحديدى لنادى الجزيرة :

ـــ أولا .. علم الأرواح علم معترف به .. وقد شاهدت عيادات من هذا النوع في ميدان البيجال بباريس .. ثانيا .. زوجك مشغول طوال اليوم بعمله وليس من الضرورى أن يعرف .. ثالثا .. لن تخسرى شيئا من ترددك عليه .. رابعا .. لا تخافى شيئا لأننى سأكون فى صحبتك ..

ـــ أراك مصرَّة على رأيك يا ماما ؟!

ـــ إن الإنسان يعيش حياته مرة واحدة فقط .. هكذا سمعت الناس يتكلمون فى أوربا .. وإذا استمر بك الوضع على هذه الحال فربما وجد زوجك سعادته عند امرأة أخرى ..

ـــ عندك حق يا ماما .. وهى تجربة مثيرة على أى حال !

وقف طارق بعربته البيضاء الفارهة أمام البيت وسرعان ما هبط منها كريم ونيرمين واندفعا صاعدين فى السلم الرخامى كما لو كانا فى سباق ، كل يريد أن يصل إلى أمه قبل الآخر . قابلا فى المدخل دادا سنية التى ردت على سؤالهما بأن أمهما فى الحمام . جرى كريم ودق باب الحمام وهو يصيح :

ـــ ماما .. ماما .. طلعت الثانى وانتقلت إلى السنة الرابعة ..

ولم تنتظر نيرمين إجابة أمها من الداخل بل دقت هى الأخرى بيدها الصغيرة ولكنها دقات أخف وأضعف وهى تكاد تصرخ :

ـــ وأنا يا ماما .. طلعت الأولى وانتقلت إلى السنة الثانية ..

جاء صوت الأم خافتا خلف الباب المحكم :

ـــ مبروك يا حبايبى .. سأخرج حالا ..

لكنها لم تخرج حالا . ومرت الدقائق بطيئة بحيث لم يحتمل الطفلان الانتظار أكثر من هذا أمام باب الحمام فذهبا بحثا عن أبيهما الذى كان يجلس إلى مكتبه يراجع بعض الأوراق وقد وضع السماعة على أذنه يملى فيها ما يقرأه . وبمجرد أن انتهت المكالمة قفزت نيرمين على ساقيه وجلست وهى تهز قدميها فى حين قفز كريم جالسا على حافة المكتب . قالت نيرمين وهى تقبل أباها :

ـــ أنت لا تعرف يا بابا كم أنا أحبك ؟!

ضحك طارق وقبلها بدوره قائلا :

ـــ وأنت لا تعرفين يا نانا كم أنا أحبك ؟!

بدت نيرمين متعلقة بأبيها بجنون ، فى حين بدا كريم مستقلا استقلالا مبكرا وهو يقول لأبيه :

ــ غداً سأبدأ تدريب السباحة فى النادى .. فأنا أريد أن أصبح بطلا عالميا عندما أكبر ..

ــ طالما أنك نجحت وتفوقت فمن حقك ممارسة الرياضة التى تعشقها .. هكذا كان اتفاقنا ..

ثم نظر الأب إلى نيرمين القابعة على حجره وسألها :

ــ وأنت .. كيف ستقضين الإجازة ؟!

ــ أريد أن أقضيها معك ؟!

ــ هل تريدين الذهاب معى إلى العمل ؟! لن تجدى من تلعبين معه هناك ؟!

ــ أريد أن أذهب معك حيثما تكون !

شعر طارق بتعلقها الشديد به فأراد أن يخفف من حدته بأن أنزلها عن حجره ، وعندما حاولت أن تقفز مرة أخرى رأت أمها تقف عند باب الغرفة ملفوفة فى بشكير الحمام الأبيض وقد غطت شعرها بفوطة بيضاء أيضا . قفز كريم وفى أعقابه نيرمين وسرعان ما انحنت شريفة واحتضنتهما فى قبلات متبادلة وهى تقول فى انفعال نادرا ما يجتاحها :

ــ ألف مبروك .. ألف مبروك ..

وسارت بهما حيث جلست على المقعد البنى الوثير فى مواجهة المكتب ، فى حين جلس كريم على مسند المقعد ونيرمين على ساقى أمها . وطارق ينظر إليهم فى قمة السعادة والنشوة . قال لزوجته :

ــ كان من المفروض أن تأتى معنا .. فقد جاء معظم الآباء والأمهات لتسلم شهادات أطفالهم .. وسألت زميلات نيرمين عن السبب فى عدم حضور أمها مثلهن ؟!

أجابت شريفة وهى تربت على ظهر كريم :

ــ البركة فيك .. المهم أنهما نجحا بتفوق ..

قفزت نيرمين من حجر أمها وفتحت حقيبة أبيها وأخرجت شهادتها وشهادة كريم وقدمتهما إلى أمها التى جرت بعينيها على الدرجات وسرعان ما ركزت على الترتيب ثم أعادتهما فوق المكتب وهى تقول :

ــ ألف مبروك .. ألف مبروك ..

قال لها طارق :

ــ سألت عنك مدرسة فصل نيرمين فاضطررت أن أقول لها إنك مشغولة مما منعك من الحضور ..

تدخلت نيرمين فى الحوار ضاحكة مبتهجة :

ــ هل تعرف يا بابا .. عندما سألتنى مسز قدرى على انفراد قلت لها إن ماما لم تستيقظ بعد ؟!

قال طارق لشريفة وقد غطت وجهه الأبيض سحابة من حمرة الخجل والإحراج :

ــ وبهذا ظهرت بمظهر الكاذب ؟!

لم تسكت نيرمين بل قالت لأبيها :

ــ لكنك يا بابا كنت تقول لى دائما إن الكذب حرام ؟!

قال الأب وقد تضاعف خجله وإحراجه :

ــ إنه حرام فعلا يا نانا ..

ــ ولماذا قلت لمسز قدرى إن ماما مشغولة ؟!

ــ لأننى لو قلت لها إنها لم تكن قد استيقظت بعد .. فربما تضايقت !!

ــ إذاً .. فالصدق يضايق الناس ؟!

تدخل كريم فى الحوار بحيث أنقذ أباه من الحرج من حيث لا يدرى :

ـــ أنت تضيعين الوقت يا نانا ؟! لقد وعدنا بابا بقضاء اليوم كله فى النادى وتسجيل اسمى فى فريق السباحة .. فلا داعى لأسئلة لا لزوم لها ..

أجاب طارق مؤمنا على كلام ابنه الذى ألقى إليه بطوق النجاة فأمسك به بكل قوته :

ـــ فعلا .. فعلا .. هيا بنا إلى النادى .. فالساعة الآن تقترب من الواحدة ..

نهض طارق مسرعا وهو يقول لشريفة :

ـــ هيا يا شريفة .. ارتدى ملابسك بسرعة .. نريد أن نحتفل فى النادى بنجاح الأولاد ..

صاحت نيرمين مصفقة :

ـــ هيه .. سنذهب إلى النادى .. سأذهب لارتداء الشورت ..

خرجت نيرمين ووراءها كريم وهو يقول :

ـــ وسأرتدى أنا أيضا المايوه ..

خرج الطفلان تاركين طارق وشريفة وجها لوجه . تفادت شريفة نظرات طارق الواقف خلف مكتبه ثم نهضت وهى تقول :

ـــ على أية حال .. قضاء اليوم فى النادى خير من قضائه فى البيت .

خرجت وطارق يتابعها حتى اختفت فى حين ارتسمت فى ذهنه صورة نشوى بحيويتها المتدفقة .

دقت مدام عنايات جرس الباب فى حين وقفت ابنتها شريفة خلفها وهى تتعجب لهذه الشقة التى لا تحمل أية لافتة ولا تدل على أنها عيادة أو أى شيء من هذا القبيل . فجأة فتحت طاقة صغيرة فى الباب وظهر وجه امرأة جميلة يبدو أنها ممرضة أو حكيمة لأنها تضع شريطا قصيرا أبيض فوق شعرها . سألت المرأة من خلال الطاقة :

ـــ من تريدين ؟

أجابت مدام عنايات :

ـــ نريد البروفيسير باتع ..

ـــ وكيف عرفت العنوان ؟

ـــ جئنا من طرف مدام أزهار التى حددت لنا ميعادا مع البروفيسير ..

ابتسمت الممرضة وقالت وهى تفتح الباب وتغلق الطاقة :

ـــ أهلا وسهلا ..

دخلت مدام عنايات وخلفها شريفة تقدم قدما وتؤخر أخرى . الشقة من الداخل فى غاية الأناقة والفخامة . الجدران مغطاة بورق ذى زخارف وردية فى حين غاصت قدما شريفة فى الطنافس الفاخرة التى غطت الأرض . جلست مدام عنايات وبجوارها شريفة . انحنت عليها الممرضة متسائلة :

ـــ كشف واحد أم كشفان ؟!

أجابت مدام عنايات :

ـــ كشف واحد ..
ـــ باسم ؟!
ـــ باسم مدام شريفة أحمد شوكت ..
سجلت الممرضة الاسم وفتحت بابا اختفت خلفه . زينت الجدران ببعض اللوحات السيريالية . فى مواجهة شريفة علقت لوحة حمراء داخلها عيون سوداء تبدو وكأنها تنظر إلى المشاهد من كل اتجاه . فى حين تسللت رائحة بخور معطر أثارت أحاسيس غامضة فى شريفة ، منها شعور بالخوف ، لكنه شعور لذيذ مثير . كانت الشقة محكمة الأبواب بحيث ساد الصمت الذى قطعته همسات المترددات الأنيقات المنتظرات لدورهن . ولولا تكييف الهواء المنعش لشعرت شريفة بالاختناق .
ابتسمت المرأة العجوز التى تحلى أصبعها بخاتم به ماسة كبيرة ثم قالت لمدام عنايات التى تلاصقها فى غرفة الانتظار :
ـــ البروفسير اسمه باتع وسره باتع !!
سألتها مدام عنايات :
ـــ هل جربت علاجه من قبل ؟!
أجابت المرأة مؤكدة ثقتها المطلقة بما تقول :
ـــ إنه متخصص فى الحالات المستعصية .. لكن لم تستعص عليه حالةمنها حتى الآن ..
أثار الحديث شهية شريفة للمشاركة بدافع الشك وحب الاستطلاع :
ـــ وكيف عرفت قدرته على علاج كل هذه الحالات ؟!
لم يعجب المرأة رنة الشك فى كلام شريفة لكنها أجابتها :
ـــ إنه غنى عن كل تعريف .
ثم أشاحت بوجهها بعيدا فى صمت . وفى اللحظة نفسها خرجت الممرضة من الباب المحكم وطلبت من شريفة الدخول للكشف . وعندما

نظرت شريفة إلى الجالسات المنتظرات فى القاعة فيما يشبه التساؤل والدهشة أجابتها الممرضة بأنهن جئن للاستشارة وليس للكشف . نهضت شريفة ودخلت خلف الممرضة . كادت تصطدم بسيدة أنيقة جميلة فى الأربعين من عمرها ، خارجة من غرفة الكشف .فقد كانت هناك غرفة طويلة أخرى تفصل بين غرفة الكشف وقاعة الانتظار . وكانت رائحة البخور المعطر تزداد كلما اقتربت شريفة من غرفة الكشف . دقت الممرضة دقات خفيفة ثم فتحت لشريفة الباب وأغلقته وراءها .

وجدت شريفة نفسها فى حجرة فسيحة فاخرة الأثاث تصدح فيها موسيقى خفيفة خافتة . رأت فى الجانب الأيسر ستارا من القطيفة الحمراء خلفه سرير صغير . سرت رعشة كهربية داخلها وتمنت لو أن أمها معها . فى مواجهتها نهض البروفسير باتع تاركا مكتبه العريق الأنيق ومرحبا بها . شد على يدها بحرارة منحنيا لها فى تأدب بالغ ، ثم قادها حيث أجلسها على مقعد أمام مكتبه ، ثم استرخى على مقعده الوثير المصنوع من المعدن الأبيض والجلد الأسود .

رأت شريفة ملامحه عن كثب . إنه لا يميل إلى الوسامة لكن فى عينيه بريق أخاذ . ترك شعره الخشن يشكل كرة كبيرة حول رأسه فى حين ارتدى حلة سوداء تشبه حلل السهرة ، وتحتها قميص أبيض وبابيون أحمر . فى خده الأيسر آثار جرح طويل عميق بعض الشيء . وأمامه على المكتب كرة من البللور تعكس ألوانا مختلفة . قال باتع بلكنة تقترب من لكنة اليونانيين الذين يعيشون فى القاهرة ، وهو يبتسم ضاحكا :

— إنها ليست البللورة المسحورة .. إنها أحدث ما وصل إليه علم الروح فى العلاج بالتركيز المكثف العميق لإخراج كل ما يعانى منه المريض فى قلبه وعقله .

لم ترد شريفة التى انتابتها حالة من الحرج شعر به باتع فقال لها وقد بدت الجدية على ملامحه :

ـــ والآن هيا بنا إلى العمل .. لن أقول لك إننى أعرف حالتك مقدما مثل الدجالين والمشعوذين !! ما هى حالتك بالضبط ؟!

أجابت شريفة فى عجلة :

ـــ تنتابنى حالات من الكآبة تجعل طعم الحياة مرا فى فمى !

ـــ أمتزوجة أنت ؟

ـــ وعندى طفلان ..

ـــ متى بدأت تشعرين بهذه الحالة ؟!

ـــ انتابتنى فى السنتين الأخيرتين لكنها اشتدت علىَّ فى الشهور الأخيرة .

ـــ تقصدين تضاعف تكرار النوبات ؟!

ـــ تماما ..

نهض باتع من على مكتبه ووقف بالقرب من شريفة قائلا :

ـــ انظرى إلى البللورة وركزى عينيك بكل طاقتك على بؤرتها الداخلية وقولى لى بصراحة تامة عن الأشياء التى تبدو لك ..

نفذت شريفة أمره وظلت محملقة فى الكرة البللورية لدرجة أنها شعرت بدوار لم تخرج منه إلا بسماع سؤال البروفسير :

ـــ ماذا ترين ؟!

أجابت شريفة وكأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسى زاد من أثره البخور المتصاعد فى الغرفة من أماكن لا تعرفها :

ـــ لا أرى سوى بعض ألوان الطيف ..

ـــ ألا ترين شيئا آخر ؟!

ـــ كما قلت لحضرتك ..

ــ ركزى أكثر ؟!
تساءلت شريفة فى حرج متصاعد :
ــ كيف ؟!
ــ لا أستطيع أن أقول لك كيف ؟! إنها مهمتك أنت !!
حاولت شريفة التركيز أكثر لكنها لم تحصل على نتيجة أفضل . فقال لها باتع مهونا عليها :
ــ لا تهتمى كثيرا .. فلنجرب طريقة أخرى .. أرنى كفك .
مدت له شريفة كفها اليمنى فى استسلام تعجبت له نفسها لكن البروفسير طلب كفها اليسرى فنفذت بطريقة آلية كأن إرادتها سلبت منها تماما . أمسك البروفسير يدها بحنان بالغ وانحنى على كفها يقرأ خطوطها ويحدث أصواتا غير واضحة ثم سألها فجأة مركزا عينيه على وجهها الجميل الخائف :
ــ متى ولد زوجك ؟!
اندهشت شريفة لكنها أجابت :
ــ من مواليد العشرين من نوفمبر ..
ــ أى من برج العقرب .. وأنت ؟!
ــ أنا من مواليد الخامس من مارس ..
ــ أى من برج الحوت ..
نظر باتع إلى سقف الغرفة متأملا ولا يزال ممسكا بيدها بطريقة لم تسترح لها وقال :
ــ هنا توجد مشكلة تضارب الأبراج ؟!
ــ لا أفهم ماذا تعنى !
لم يرد عليها بل انحنى متأملا كفها ماسحا إياها كعاشق ولهان . حاولت أن تسحب كفها برقة لكنه شد عليها مما ضاعف من خوفها

وتمنت لو أن زوجها أتى فى هذه اللحظة كى ينقذها . قال باتع برقة غريبة :

ـــ خط الصحة فى كفك يدل على أن الكآبة ستنتابك قبل بلوغ الرابعة والثلاثين . لكن علاجها ممكن إذا نفذت المطلوب منك ..

تنفست الصعداء عندما ترك كفها وعاد إلى مقعده الوثير ، وسألته بعد أن عاودتها بعض الطمأنينة :

ـــ وما المطلوب ؟!

ـــ خصلة من شعر زوجك وقطعة من ملابسه الداخلية ..

بدت بوادر التحدى فى سؤال شريفة :

ـــ وماذا ستفعل بهما ؟!

افتعل ضحكة وقال :

ـــ إنها أسرار المهنة ..

ـــ هل هذا علاج أكيد من الكآبة ؟!

ـــ إذا لم ينجح هذا العلاج فى « فك العمل » ، فلا بد أن هذا « العمل » من فعل جن لبس جسدك ، ولا بد أن يخرج هذا الجن من إصبع قدمك اليسرى قبل أن يدمرك أو يخرج من عينك فيصيبك بالعمى .

اهتزت شريفة عند سماعها لفظة « الجن » برغم أنها لا تثق فى هذا البروفيسير الذى سعد أخيرا بتأثيره عليها . فنهض منهيا الكشف :

ـــ افعلى كما قلت لك .. وسأراك فى مثل هذا الميعاد من الأسبوع القادم .

انحنى لتسجيل الميعاد فى مفكرته الأنيقة على المكتب ، وعندما فتحت شريفة حقيبة يدها الصغيرة قال :

ـــ الأتعاب تدفع للممرضة .. لا أحب أن تلمس يداى االنقود ..

ولا تنسى أن تسجلى عند الممرضة اسم أبيك وأمك وكذلك اسم حماك وحماتك .. ولا تحاولى التساؤل لأننى سأحيل الأسماء إلى أرقام فى عملية معقدة جدا فيها الجمع والقسمة إلى أن نصل إلى رقم سيدلنا على اسم الإنس أو الجن الذى سبب لك الكآبة . ومهما شرحت لك فلن تفهمى .. إنها عملية قد تطول .. لكن المهم هو النتيجة ..

لم ترد شريفة بل صافحته وخرجت إلى الغرفة الطويلة الوسطى حيث كانت الممرضة فى انتظارها . فقدمت لها الأتعاب والأسماء المطلوبة التى سجلتها فى مفكرتها ، وخرجت حيث كانت أمها تنتظرها قلقة فى غرفة الانتظار التى لم يبق فيها مقعد واحد خاليا من المترددات اللاتى تابعن شريفة وأمها حتى خرجتا .

فى السيارة جلست شريفة بجوار أمها التى كانت تتحرق شوقا لسؤالها عما دار لكنها آثرت الصمت فى وجود سائقها الخاص . كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء واستكانت شريفة إلى مكانها فى السيارة ، لكن إحساسا جديدا انتابها ذكّرها بكلمة المرأة العجوز ذات الخاتم الماسى التى قالت لهما إن البروفسير اسمه باتع وسره باتع أيضا . أحست شريفة برغبة جارفة تجتاحها نحو زوجها ، رغبة لم تشعر بمثل فورتها منذ شهور عديدة . تمنت لو أسرع السائق العجوز بحيث تغمض عينا وتفتح أخرى فتجد نفسها بين أحضان زوجها أو هو بين أحضانها .

وصلت العربة فرأت شريفة زوجها يقف فى الشرفة ينظر يمنة ويسرة .

رأته أمها فوعدتها بزيارة فى الغد . هبطت شريفة من العربة ولا زالت عيناها معلقة بزوجها الذى دخل كما لو كان فى انتظارها . لم تشعر بالارتياح وسرعان ما خفتت إيقاعات الرغبة داخلها وعندما قابلته فى المدخل قال لها قبل أن تفتح فمها بكلمة :

— أين كنت ؟! بحثنا عنك فى كل مكان فلم نجدك ؟!

سقط قلب شريفة فى قاع قدميها وسألت متلعثمة :

— خير .. كنا فى زيارة لطنط أزهار .. ماذا حدث ؟!

— عادت نيرمين من النادى وحرارتها تقترب من الأربعين ..

— وهل أحضرتم الطبيب ؟!

— طبعا .. وقال إنها الحصبة الألمانية ..

هرعت شريفة إلى غرفة نيرمين وقد تحولت رغبتها فى الحب إلى رغبة فى الموت . أغرقتها موجة متلاطمة عاتية من الكآبة لكنها قاومتها حتى بلغت فراش نيرمين .

كانت الطفلة مسترخية لكنها تتقلب فى عصبية وقد تورد وجهها لحرارتها المرتفعة . احتضنتها فى عنف فقالت لها :

— أتيت أخيرا يا ماما ؟! لقد سأل عنك بابا كثيرا !!

— لم أتأخر يا حبيبتى !

وطفرت الدموع ساخنة من عينيها لدرجة أنها بللت وجه الطفلة . مسحت الطفلة وجه أمها بيدها وهى تقول :

— لا تبكى يا ماما .. قال الطبيب إننى سأشفى بسرعة ..

نظرت نيرمين خلف أمها ومدت ذراعيها قائلة :

— تعال يا بابا .. اجلس بجوارى ..

نظرت شريفة فى الاتجاه نفسه فوجدت زوجها واقفا وخلفه كريم قالت له :

ـــ اخرج من هنا يا كريم حتى تشفى أختك ..
خرج الطفل فى صمت فى حين تقدم طارق من فراش ابنته وجلس على حافته الأخرى . أمسكت نيرمين بيده فى حين أمسكت يد أمها بيدها الأخرى فاستشعرت لسعة منها جعلت القشعريرة تسرى فى جسمها كله . قال طارق لزوجته :
ـــ قال الطبيب : لا بد من كمادات مستمرة حتى تنكسر حدة الحرارة ..
أجابت شريفة وهى ترتعش من الداخل :
ـــ لا تحمل همًّا يا طارق .. سينام كريم بجوارك وسأظل ساهرة بجوار نيرمين .. فهذه مسئوليتى !!
ـــ سأقوم الآن لاجتماع مهم فى المكتب وسأعود بأسرع ما يمكن . أما الأدوية فبجوار نيرمين ومكتوب على كل منها ميعاد وطريقة استعمالها .
ـــ وهو كذلك .. مع السلامة ..
سحب طارق يده برقة من يد نيرمين التى راحت فى إغفاءة وخرج بهدوء مطبق أثار الخوف داخل شريفة من مواجهة نفسها المضطربة . لكن مع توغل الليل واستمرارها فى عمل الكمادات ومنح الأدوية لطفلتها ، أحست أنها تخوض معركة وأنها تفعل شيئا وأن الآخرين فى حاجة إلى خدماتها ، وهو إحساس ارتاحت له وجعلها تغفو عند بزوغ أول خيط لنور الفجر بعد ليلة طويلة من السهر المحموم . لكنها استيقظت فى السابعة صباحا تماما بدون جرس منبه لإعطاء ابنتها الجرعة التالية من الأدوية وهى مذهولة للحلم الذى رأت فيه البروفسير باتع وهو يحاول اغتصابها .
ظلت تستعرض أحداث الأمس وتفاصيل زيارتها للعيادة الغريبة ، وطلب باتع خصلة من شعر طارق وقطعة من ملابسه الداخلية . فى اللحظة

نفسها دخل طارق مرتديا بيجامته ، وقد بدا الإرهاق على وجهه والاحمرار فى عينيه . ألقى بتحية الصباح وسأل عن نيرمين التى كانت مستغرقة فى النوم فجست شريفة جبهتها قائلة :

ـــ الحمد لله يا طارق .. الحرارة هبطت وسأقيسها الآن للتأكد .. اذهب أنت للإفطار ولعملك .. لا تقلق فالحصبة الألمانية مرض عادى ..

ـــ وأنت ؟! لا بد أن تتناولى الإفطار .. وتنامى قليلا ..

ـــ لقد سئمت من النوم .. فلا بأس ببعض السهر ..

ـــ على كل حال لن أتأخر فى المكتب اليوم .. وسأكون على اتصال مستمر بك للاطمئنان على نيرمين .. عن إذنك ..

خرج طارق وقامت شريفة بقياس حرارة نيرمين ، وحمدت الله أنها لا تزيد على السابعة والثلاثين والنصف . خفت حدة القلق فأغفت مرة أخرى وراحت فى نوم خفيف جعلها تشعر بسنية وهى تدخل واضعة صحف الصباح على الكومودينو بجوارها . وبمجرد أن خرجت فتحت عينيها وتناولت الصحيفة الأولى وتصفحت العناوين الرئيسية وعندما بلغت صفحة الحوادث نهضت جالسة كمن لدغته عقرب . غير معقول ! مستحيل !! الحمد لله !! كيف حدث هذا ؟! وبالأمس بالذات ؟! لكن ماذا سيحدث بعد أن سجلت هناك الأسماء كلها ؟! هل يمكن أن تستدعيها الشرطة للإدلاء بأقوالها ؟! كيف سمحت لنفسها أن تتورط فى أحابيل دجال مشعوذ مثله ؟! لكن الحمد لله أنها لم تكن موجودة فى أثناء إلقاء القبض عليه ؟! صحيح أن الصحيفة لم تذكر أى اسم للمترددات ، لكن وجودها كان يمكن أن يكون خطرا على حياتها الزوجية وخاصة أنه تم دون علم زوجها الذى يحتقر كل هذه الخزعبلات من صميم قلبه ؟! إنه درس العمر ! ورجت الله أن يتم فضله ويمر على خير .

أغرقت هذه الموجات المتسائلة شريفة وهى تنظر إلى صورة البروفسير باتع التى تتوسط الخبر الرئيسى فى صفحة الحوادث والذى كتب تحت عنوان « القبض على دجال غرر ببعض السيدات الثريات » ، وحكى الخبر تاريخ حياته : اسمه الحقيقى حمادة مصطفى النص . لم يكمل دراسته فى قسم علم النفس بكلية الآداب ، وانضم إلى عصابة لخطف سلاسل السيدات بالدراجات البخارية . وقبض عليه وحكم عليه بالسجن حيث دارت معارك بينه وبين بعض السجناء انتهت إحداها بطعنة سكين فى خده الأيسر . وعندما خرج من السجن انضم إلى عصابة دولية للرقيق الأبيض اتخذت من بيروت مقرا لها ، لكن العصابة انفضت مع اضطراب الأحوال فى بيروت . وكان قد كوَّن ثروة لا بأس بها استطاع أن يفتح بها عيادته المشبوهة التى كانت تحت رقابة رجال الشرطة حتى القبض عليه .

أعادت شريفة قراءة الموضوع أكثر من عشر مرات ، وكان ندمها فى كل مرة يتضاعف لأنها سجلت أسماء أسرتها وأسرة طارق عند هذا الرجل المشعوذ ، وتمنت من الله ألا تصل هذه الأسماء إلى أيدى الشرطة . ولم تخرج من هواجسها ومخاوفها إلا على صوت نيرمين وهى تستيقظ جالسة طالبة كوب ماء . وسرعان ما ضغطت شريفة على زر بجوار السرير ، فجاءت سنية وطلبت منها إحضار كوب ليمونادة ومعه لبن زبادى وعندما همَّت نيرمين بالاحتجاج أسكتتها أمها بقولها :

ــ أعرف أنك لا تحبين الزبادى ولكنها أوامر الطبيب .

استسلمت الطفلة للاسترخاء مرة أخرى فى حين خرجت سنية . عادت شريفة لتتصفح صفحة الحوادث فى الجريدتين الأخريين فوجدت الموضوع نفسه وإن كانت الصياغة مختلفة بعض الشىء . وفجأة وجدت أمها تقف سائلة فى لهفة :

ـــ كيف حال نيرمين الآن ؟ أخبرتنى سنية بأنها أصيبت بالحصبة الألمانية ؟!

لم تجب شريفة بل دفعت بالجريدة إلى أمها التى جلست على كرسى مجاور للسرير وهى مندهشة لتصرف ابنتها . وقعت عيناها على صورة البروفسير باتع فجحظتا وظلت تمسح سطور الموضوع فى صمت مشحون بشتى الانفعالات المتضاربة التى يستحيل تمييزها وتحديدها . أخيرا بعد لحظات ثقيلة ألقت بالجريدة على الفراش وهى تقول لابنتها دون أن تواجه عينيها :

ـــ لا تصدقى .. إنه كلام جرائد .. لا بد أنها وشاية .. فقد انتشر الحقد على الناجحين فى هذه الأيام .. وأصبح كالماء والهواء ..

لم تحتمل شريفة عناد أمها فأرادت أن تفحمها :

ـــ ماما .. إن الإنسان يمكن أن يخدع نفسه مرة ومرات .. لكن أن يصل به خداع نفسه إلى هذا الحد .. فهذا شىء لا يطاق !!

أحست مدام عنايات بتحدى ابنتها ورفضها الصريح لأفكارها فآثرت الصمت ، ولم ينقذهما من هذا الجو المتوتر سوى دخول سنية حاملة صينية عليها الليمونادة والزبادى بيد ، والتليفون بيد أخرى وهى تقول لشريفة :

ـــ الدكتور محسن على التليفون ..

أمسكت شريفة بالسماعة مرحبة بالدكتور محسن :

ـــ أهلا دكتور محسن ..

ـــ طلبت هذه المكالمة المبكرة كى أطمئن على نيرمين .. كيف حالها الآن ؟!

ـــ الحمد لله .. الحرارة الآن قريبة من المعدل الطبيعى ..

ـــ لا تقلقى .. ستعود إلى الارتفاع مساء .. لكن هذه هى طبيعة الأمور حتى ينتهى الدور ..

ـــ شكرا يا دكتور محسن على اهتمامك البالغ ..
ـــ لا شكر على واجب .. فأنت أخت عزيزة أحب لها كل خير ولا أطيق أن يكون هناك ما يضايقها ..
ـــ الحمد لله .. لا يوجد ما يضايقنى الآن سوى مرض نيرمين ..
ـــ إنه دور عادى كثيرا ما يصيب الأطفال .. لكن ما يضايقنى فعلا أنك فقدت أخيرا كثيرا من مرحك !! وأخشى أن تصبحى واحدة من ضحايا مرض العصر !!
ـــ وما مرض العصر هذا ؟!
ـــ الكآبة !!
ـــ وما الذى أوحى إليك بهذه الفكرة ؟!
ـــ كنت أشعر بها من قبل .. لكننى تأكدت منها فى حفل عيد زواجكما .. وحاولت أن أفاتحك فى الموضوع لكن الفرصة لم تحن ..
ـــ وهل فاتحت طارقا فى هذا الموضوع ؟!
ـــ كان قد أبدى لى ذات مرة قلقه عليك .. فقلت له بصراحة إنك لا بد أن تترددى على طبيب نفسى برغم معرفتى بعدم ثقتك فى الطب النفسى . لكن عندما اتصلت بطارق اليوم وأبلغنى بمرض نيرمين خفت أن يجرفك مرضها إلى قاع أعمق من الكآبة وقررت أن أفاتحك فى الموضوع حتى لو لم تكن هذه مناسبته ..
ـــ إذا كان الجميع قد شعروا بهذه الحالة التى تنتابنى ، فلا بد أنها أصبحت واضحة لكل ذى عين ، أى خطيرة . على كل حال أنا تحت أمرك فى أى رأى تقترحه !!
ـــ لا أريد بكلامى هذا أن أزيد من توترك .. لكننى باختصار شديد أنصحك بالذهاب إلى الطبيب النفسى الدكتور عبد الهادى أبو الوفا ..

فأنا أثق فيه تماما وكان زميلى فى نفس الجامعة بأمريكا .. وهو أستاذ عظيم ..

نظرت شريفة إلى أمها فأشاحت الأخيرة بوجهها بعيدا عنها . قالت فى السماعة :

ـــ وهو كذلك يا دكتور محسن .. سأتفق مع طارق على الذهاب إلى الدكتور عبد الهادى . شكرا .. مع السلامة ..

وضعت السماعة وكانت أمها لا تزال تشيح بوجهها بعيدا .

- ٦ -

ـــ اليوم تبدو أحسن حالا من الأيام السابقة ؟!

قالتها نشوى وهى تأخذ من طارق بعض الأوراق وتهم بمغادرة المكتب لكنه قال لها :

ـــ اجلسى قليلا .. فأنا فى حاجة إلى إنسان كى أتحدث معه ..

لمعت عيناها وهى تجلس ناظرة إلى ساعة يدها وكأنها فى عجلة من أمرها . لاحظها طارق فقال :

ـــ لن أعطلك طويلا .. فأنا فعلا أحسن حالا من الأيام السابقة .. فقد شفيت نيرمين .. وأنت تعلمين جيدا أن روحى فيها !!

ـــ حفظها الله لك .. لكن السعيد لا يحتاج عادة إلى إنسان كى يتحدث معه ؟!

ـــ الحمد لله طبعا لشفاء نيرمين .. لكن شريفة أصبحت تفضل العزلة والصمت لدرجة أستطيع القول فيها إن حياتنا الزوجية الحقيقية تكاد تتوقف ..

تساءلت نشوى فى خبث :

ـــ ولماذا تحكى لى أنا بالذات هذه الأسرار ؟!

ـــ لأنك من أقرب الناس إلىَّ .. وأريد أن أفضى إليك بما يثقل قلبى ..

قالت نشوى بنوع من الدلال المقصود :

ـــ إذا كان هذا يريحك فأنا تحت أمرك !!

ـــ شكرا يا نشوى ..

ـــ لكن ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

ـــ لا أعرف بالضبط .. لكن وجودك معى يريحنى كثيرا .. أشعر أن هناك من يستطيع أن يشاركنى همى ..

تساءلت نشوى وفى عينيها بريق غريب :

ـــ وهل ستترك شريفة فى عزلتها وصمتها دون حل للمشكلة ؟!

ـــ اتفقت مع الدكتور محسن على الاتصال بالدكتور عبد الهادى أبو الوفا أستاذ الأمراض النفسية والعصبية كى يباشر علاج شريفة .

لم تسترح نشوى لذكر اسم الدكتور محسن ، ولإحساسها بأن اهتمام طارق بزوجته لا يزال على عهده القديم فنهضت وهى تقول :

ـــ إذاً .. ليست هناك مشكلة تقلق منامك ؟! عن إذنك !!

تعجب طارق لإصرارها على مغادرة مكتبه بهذه العجلة فى حين أنها كانت تتلكأ فى مرات سابقة . لم يحب أن يظهر بمظهر المتكالب عليها فنهض قائلا :

ـــ تفضلى .. مع السلامة ..

خرجت نشوى مسرعة . وعند باب العمارة التى بها الشركة كان هشام فى انتظارها فى عربته الصغيرة . وبمجرد أن ركبت انطلق بها وسط زحام العربات دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

كان هشام موظفا فى وزارة الخارجية ومرشحا للعمل فى وظيفة سكرتير ثان فى السفارة المصرية بباريس . ولعل وظيفته كانت سبب انجذاب نشوى إليه . فليس هناك من سبب آخر فى نظرها . فهو ليس فى وسامة طارق أو محسن . وأسرته تتأرجح فى الهوَّة الفاصلة بين الطبقة الكادحة والطبقة المتوسطة . وعندما ادخر ليشترى عربة لم يستطع سوى شراء هذه العربة القديمة الصغيرة التى يقضى بجوارها عند الميكانيكى وقتا لإصلاحها أطول من الوقت الذى يمضيه فى ركوبها . كذلك فهو يؤمن إيمانا لا يتزعزع

بالاشتراكية التي لولاها لما استطاع الالتحاق بالسلك الدبلوماسي الذى كان قاصرا على أبناء طبقة نشوى . ولعل الشيء الوحيد الذى كان يتميز به عن هذه الطبقة هو ثقافته الشاملة العميقة ، وثقته بأن الثقافة قادرة على الارتفاع بالإنسان فوق أعلى الطبقات الاجتماعية ، ولذلك تشعر نشوى أنه يعاملها من منطلق الند للند دون عقد أو حساسيات . وكانت تظن فى بادىء الأمر أنه تعلق بها لرغبته فى التسلق الطبقى ، لكنها تأكدت فيما بعد أن مسايرتها له فى آرائه دون أى إيمان بها هو الذى جعله يظن أنه من الممكن أن يحتويها . فقد آن الأوان للطبقات الأرستقراطية أن تتعلق بأهداب الطبقات الكادحة التى لهثت كثيرا وطويلا فى أعقابها ..

أما نشوى فلم ترتبط به على أساس من حب عميق منذ أن قابلته فى مكتب عمها السفير ، بل رأت فيه عصفوراً فى اليد ، أفضل من العصافير التى تقابلها فى النادى والتى ترى فيها مجرد مطلقة وصائدة أزواج . وبرغم أنها تستشعر إعجاب طارق الخفى بها ، فإنها متأكدة أن كفة زوجته لا تزال الراجحة . كذلك فإنها لا تقتنع بعلاقة عابرة أو أن تكون الزوجة الثانية أو تعيش بلا زوج . ولذلك كانت تساير هشاماً فى كل ما يقوله حتى لا يطير من القفص الذى لن تفتحه له إلا إذا صادت عصفوراً آخر . ولا تعرف لماذا كانت صورة طارق ترتسم دائما فى مخيلتها كلما فكرت فى إمكان اصطياد مثل هذا العصفور ؟!

استيقظت نشوى من خواطرها عندما توقف هشام بعربته أمام نيل الجزيرة خلف حديقة الحرية . كانت الساعة تناهز الرابعة بعد الظهر ، وكان النسيم يهب رقيقا لطيفا برغم سخونة يوليو . سار النيل بجلاله المهيب فتراقصت فوقه العوامات المتراصة على الجانب الآخر . كانت الشمس تحتوى كل الأشياء بضيائها الباهر فتزداد لمعة ذهبية . تأمل هشام المنظر قائلا فيما يشبه الخشوع :

ـــ إن الطبيعة لا تفرق بين البشر أو الأشياء .. إنها توزع الضياء والماء والهواء على الجميع دون أن تسأل عن هوية أحد منهم ودون أن تنتظر مقابلا . إننا نحصل على أهم عوامل استمرار حياتنا مجانا ، فى حين يتحكم الإنسان فى أسعار ما يصنعه بل ويتلاعب بها بهدف القضاء على منافسيه .

لم تجد نشوى ما ترد به على هذه الفلسفة التى لا تستطيع أن تلم بأطرافها ، فهزت رأسها موافقة وهى تتأمل المنظر نفسه . فظن هشام أن تلميذته النجيبة تتلقى على يديه ما لم تكن تحلم به من علم وفلسفة وثقافة . واكتفى بهذه الجرعة المكثفة الدسمة وسألها :

ـــ ألم تصلى إلى قرار بخصوص ما ناقشناه مراراً من قبل ؟!

ـــ لم أصل بعد .. فأنا فى حيرة من أمرى !!

ـــ أنا شخصيا لا أدرى سببا مقنعا لهذه الحيرة ؟!

ـــ إن قرار الزواج قرار مصيرى ولا يتخذ بالسهولة التى تتصورها ..

ـــ أوافقك .. لكننى أريد سببا محددا يقنعنى بالانتظار ..

ـــ إننى لا أريد أن أخسرك وفى الوقت نفسه لا أريد أن أخسر أسرتى .

ـــ أفهم من كلامك هذا أنه إذا أصرَّت أسرتك على رفضى فإنك سوف ترضخين لها ..

ـــ إنك دبلوماسى يا هشام وعلمتنى أن هناك درجات عديدة من الألوان بين الأبيض والأسود ..

شعر هشام بالفخر وتلميذته النجيبة تعترف بفضله عليها . قال :

ـــ إذاً فأنت تستغلين عامل الزمن فى التقريب بين كل من موقفك وموقف أسرتك منى ؟!

ـــ تماما ..

ـــ وهل وضعت حدا أقصى لعامل الزمن ؟!

ـــ سيتم كل شىء قبل سفرنا إلى باريس ..

سعِد هشام بحديثها عن السفر الذى سيجمع بينهما بعد الزواج .. نظر إلى هالة الشعر الأصفر المحيطة بعينيها الزرقاوين ، مستسلما لموجة من الإشعاعات المثيرة ، فابتسمت نشوى مما شجعه على الإمساك بيدها التى قربها من فمه وقبلها فى شغف ، لكنها سرعان ما سحبتها قائلة وهى تنظر حولها فى قلق مفتعل :

ـــ أخشى أن يرانا أحد !!

ـــ لم أفعل شيئا سوى تقبيل يدك !!

داعبته ضاحكة فى دلال :

ـــ فى باريس يمكننا أن نفعل كل شىء فى السيارة !!

لم يستجب لضحكها بل قال بنوع من الاستنكار :

ـــ إذا كنا سنذهب سويا إلى باريس .. فلن نحتاج إلى السيارة .. سنعيش فى شقتنا سويا ..

ربتت على يده فى حنان تجيده تماما وتعرف كيف تعيده به إلى قفصها ، وسرعان ما سرى الارتياح داخله فوجد وجهه يبتسم فى المرآة أمامه . قالت :

ـــ هيا بنا نعود .. فلدى عمل فى المكتب مساء ..

ـــ سأفتقدك كثيرا ..

ـــ سأراك غدا فى الميعاد نفسه ..

ـــ أحب أن أرى وجهك الجميل فى كل وقت .. سأنتظر ميعادك على أحر من جمر ..

ابتسمت وطبعت قبلة خاطفة على خده ثم قالت فى عجلة :

ـــ هيا بنا ..

سرت القبلة فى شرايينه سريان السحر . أدار محرك العربة وعاد منطلقا مع البشر والبهجة والنشوة .

دخلت شريفة وطارق فنهض الدكتور عبد الهادى أبو الوفا مرحباً بهما فى مكتبه ، ثم جلسا أمامه فسأل شريفة :

ــ هل قمت بكل الفحوص التى طلبتها منك ؟!

ــ قام الدكتور محسن بتنفيذ كل تعليمات حضرتك فى مستشفاه .. وها هى نتيجة الفحوص ..

قدّمت شريفة عدة أوراق فحصها الدكتور عبد الهادى بدقة وهدوء بعد أن وضع نظارته الطبية على عينيه :

ــ الحمد لله .. ليس هناك مرض عضوى ..

ــ إن صحتى على ما يرام يا دكتور .. لكن المشكلة فى الاكتئاب الذى يفقدنى طعم الحياة ..

ــ لقد أخبرنى الدكتور محسن بأنك من غير المتحمسين للطب النفسى .. وأنا بدورى لا أطالبك بالتحمس له .. لكن من حقى كطبيب معالج أن أطلب منك أن تتحمسى على الأقل لحياتك .. ولذلك طلبت من طارق بك الحضور معك لأن مجال العلاج يقع فى منطقة ما بينك وبينه ولا يقتصر عليك فحسب ..

ابتسم طارق قائلا للدكتور :

ــ وأنا رهن إشارتك ..

ــ سأسألك سؤالا أرجو أن تجيبنى عليه بمنتهى الصراحة ؟

ــ تفضل ..

ــ هل تحب شريفة ؟!

ـــ طبعا ..

ـــ أقصد هل تحبها بنفس الحماس الذى مر بك فى المرحلة الأولى من الزواج ؟!

ـــ طبعا .. لكن اللمسة الرومانسية الخيالية تلاشت تقريبا لتحل محلها حقائق الواقع !

ـــ ماذا تقصد بحقائق الواقع ؟!

ـــ أقصد أن الحياة الزوجية بمرور الوقت تتحول إلى نوع من الشركة التى يساهم فيها كل طرف بجهده وفكره !!

ضحك الدكتور عبد الهادى مخففا بعض الشيء من جدية الجو وقال :

ـــ يبدو أن عملك فى الاستيراد والتصدير والتجارة قد جعل من حياتك الزوجية شركة مساهمة مصرية ؟!

اشترك الثلاثة فى الضحك الذى أنهاه الدكتور عبد الهادى بقوله لطارق :

ـــ شكرا .. طارق بك .. أرجو ألا أكون قد أضعت من وقتك أكثر من اللازم .. يمكنك الانصراف إلى عملك ..

نهض طارق وشد على يد الدكتور عبد الهادى شاكرا وخرج تاركا شريفة التى أحست بالوحدة بعض الشيء ، لكنها ابتسمت ابتسامة خفيفة عابرة عندما تذكرت البروفسير باتع . لاحظ الدكتور عبد الهادى الابتسامة فسألها :

ـــ هل تذكرت شيئا لطيفا ؟!

احمرت وجنتاها وتلعثمت قائلة :

ـــ لا .. أبدا ..

ـــ والآن أريد منك أن تحكى لى عن مدى ارتباطك بزوجك !

ـــ إننا مرتبطان بعضنا ببعض ارتباطا أبديا ..

ـــ لا تكونى بهذه الثقة المطلقة .. فكل شيء فى حياتنا خاضع لقوانين التغير والتطور ..

ـــ هل تقصد أنه من الممكن أن أنفصل عنه يوما ما ؟!

ـــ كل شيء ممكن .. فالحياة الزوجية فى حاجة إلى قوة دفع مستمرة من كلا الطرفين . فهى ليست حقيقة راسخة كالهرم وإنما هى واقع متغير شأنها فى ذلك شأن أى واقع آخر ..

قالت شريفة وقد ارتسمت المخاوف على وجهها :

ـــ إننا والحمد لله لا نعانى من أية مشاكل يمكن أن تهدد حياتنا الزوجية .. فكل شيء نريده متاح لنا ..

سألها فى حسم :

ـــ وما دامت حياتكما بهذه الرفاهية .. فما السر فى نوبات الاكتئاب التى تصيبك ؟! هل الاكتئاب نتيجة طبيعية للرفاهية ؟!

ـــ وأنا جئت إلى حضرتك كى أعرف هذا السر !

ـــ المسألة ليست سراً على الإطلاق .. إن مشكلتك هى أنك لا تعانين من أية مشكلة على الإطلاق ..

ـــ كيف ؟! لا أفهم !!

ـــ إن المشاكل بالنسبة للحب والزواج مثل التوابل بالنسبة للطعام : قليل منها يفتح الشهية وكثير منها يفسد طعمه . ولذلك فحياتك الزوجية فى حاجة إلى قدر معقول من التوابل حتى تستمتعى بمذاقها .

ـــ تقصد المشاكل ؟! وكيف تأتى المشاكل ؟! هل أصطنعها ؟!

ـــ لا أقصد المشاكل بالضرورة ؟! وإنما أقصد أن يكون للإنسان رسالة فى الحياة .. هدف يعيش من أجله .. يحقق ذاته من خلاله .. يمنح لوجوده معنى وطعما .. يجعل الآخرين فى حاجة إليه ..

ـــ لقد قضيت أسبوعا كاملا بجوار ابنتى أشرف على علاجها عندما

أصيبت بالحصبة الألمانية فى الشهر الماضى ..
ــ أداء الواجبات الطارئة لا يكفى .. لأن عوامل الملل والاكتئاب سرعان ما تعود بمجرد الانتهاء منها ..
ــ إذاً ما العمل للهروب من هذا الاكتئاب ؟!
ــ هل لك هواية تقضين بها وقت فراغك ؟!
ــ ليست لى هواية سوى التزين أمام المرآة والثرثرة مع الصديقات فى جلسات النادى ..
ــ تعجبنى صراحتك .. وهل لا زلت ترددين بكثرة على النادى ؟!
ــ فى الواقع ترددى قل كثيرا .. وأصبحت أميل إلى العزلة والمكث فى المنزل ..
ــ ألم تعملى من قبل فى أية وظيفة ؟!
ــ عملت بقسم العلاقات العامة بالجامعة الأمريكية .. لكننى لم أجد أية متعة فى العمل .. علاوة على بعض الأخطاء التى ارتكبتها . فتركت العمل وخاصة أن مرتبه لم يكن يعنى شيئا بالنسبة لى ..
ــ إن القضية ليست قضية مرتب كما قلت لك .. وإنما هى قضية رسالة الإنسان فى الحياة ..
ــ لم أجد فى عملى هذا أية رسالة يمكن أن أؤديها !!
شعر الدكتور عبد الهادى بمقاومتها العنيدة فنهض من مكانه بعد أن وضع نظارته الطبية على المكتب ، وفتح خصاص النافذة التى تركت أشعة الشمس تفترش الغرفة خلال الحاجز الزجاجى ، فأثارت نوعا من السخونة برغم جهاز التكييف . نظر الدكتور عبد الهادى من النافذة فوجد العمارات الشاهقة جاثمة تكاد تطبق على مكتبه فعاد وواجه شريفة واقفا : .
ــ سأقول لك سرا من أسرار مهنتنا .. إن كل ما نستطيع فعله هو

تحريك إرادة المريض نحو الشفاء .. وإذا كان أطباء الجسم يعتمدون إلى حد ما على هذه الإرادة فما بالك بأطباء النفس .. صحيح أننا نعتمد الآن على بعض الأدوية بل والجراحات .. لكن إرادة المريض تأتى فى المقام الأول وأحيانا الوحيد كما هو فى حالتك ..

ــ أفهم من هذا أن علىَّ أن أعالج نفسى بنفسى ؟!

ــ إلى حد كبير .. فمشكلتك ليست عقدة نفسية مترسبة من الماضى وكامنة فى اللاوعى وعلينا أن نبحث عنها حتى نجدها ويتم الشفاء .. كما ترين فى الروايات السيكلوجية .. لقد أتيت بعد أن شخصت أنت حالتك على أنها اكتئاب .. وهو تشخيص لا جدال حوله ..

ــ أى أننى كما قمت بالتشخيص .. فعلىَّ أن أقوم بالعلاج أيضاً ؟!

ــ تماما ..

ــ وما دور حضرتك ؟!

ــ دورى فى أن أشرح لك طرق العلاج المختلفة وعليك أن تنتقى منها ما يناسبك .. سواء اخترت منها أو جمعت بينها ..

ــ وما أسباب الاكتئاب فى حالتى ؟!

ــ أعتقد أنه نتيجة مباشرة لرواسب من الصدأ تراكمت داخلك بمرور الزمن .. ولم يكن هناك ما يمكنك من إزالتها .. فأنت لا تشغلين نفسك بشىء .. ومع الرتابة المستمرة للحياة فقدت قدرتك على الحيوية والانطلاق ..

ــ والمطلوب الآن استعادة هذه القدرة ؟!

ــ تماما .. ولن يتم هذا إلا بأسلوب من اثنين أو هما معا .. الأسلوب الأول : الإصرار على طرد الأفكار السوداء وكل أحاسيس الملل والضجر والسأم والعزلة والاكتئاب ، والاندماج داخل تيار الحياة ، والسعى إلى الارتباط بالآخرين والاهتمام بهم بقدر الإمكان . وهذا أسلوب صعب لأنه

يحتاج دائما إلى وعى حاد وإرادة راسخة وعزيمة لا تتزعزع حتى يتخلص المريض من كل رواسب الصدأ داخله .

ـــ والأسلوب الثانى ؟!

ـــ الأسلوب الثانى لا يتمثل فى داخل المريض بقدر ما يتمثل خارجه .. بمعنى أنه يتمثل فى صدمة أو زلزال يغير تماما من رؤيته للحياة ، ويزيل رواسب الصدأ داخله . لكن خطورة هذا الأسلوب أن المريض قد تأتيه الصدمة بعنف لا يحتمله ، وقد تأتى بنتيجة عكسية تماما ، وقد لا تحدث الصدمة على الإطلاق ، فهى أمر لا يمكن التنبؤ به .

ابتسمت شريفة قائلة :

ـــ لا شك أننى أفضل الأسلوب الأول !!

ـــ بشرط أن تتوافر لديك العوامل المؤدية إلى إنجاحه !

ـــ وكيف أبدأ ؟!

ـــ هل حصلت على إجازة من حياتك الزوجية من قبل ؟!

ضحكت شريفة متسائلة :

ـــ ماذا تقصد ؟!

ابتسم الدكتور عبد الهادى وعاد جالسا إلى مكتبه :

ـــ أقصد ألم تفارقى زوجك من قبل ولو لفترة وجيزة ؟!

ـــ لم يحدث .. كل إجازاتنا وسفرياتنا جمعتنا سويا !!

ـــ أنت فى حاجة لإشعال نار الشوق داخلك تجاه زوجك .. ولن يتم هذا إلا بالابتعاد عنه لفترة تحددينها أنت بنفسك ..

ـــ كنت أفكر فى زيارة أختى المقيمة فى باريس .. قبل أن ينتقل زوجها إلى بيرو !

ـــ وأنصحك باصطحاب أطفالك معك ؟!

ـــ ولماذا ؟!

ـــ حتى يتركز شوقك فى شخص زوجك فقط !
ـــ وبماذا تنصح بخصوص مدة الإجازة ؟!
ـــ تمتعى بحياتك هناك حتى يجبرك الشوق على العودة !
نهض الدكتور عبد الهادى مرة أخرى وقال منهياً الزيارة :
ـــ وسأراك بعد عودتك بالسلامة بإذن الله ..
نهضت شريفة بدورها وهى تمد يدها له :
ـــ شكرا .. يا دكتور .. سأراك بإذن الله مرة أخرى ..
ـــ مع السلامة ..
خرجت شريفة حيث فوجئت بوجود طارق فى غرفة الانتظار . نهض مبتسما واصطحبها خارجا ..

انشغلت شريفة بالإعداد لسفرها مع أطفالها . ودهشت لزوجها الذى تركها تفعل كل شيء بنفسها . شراء لوازم السفر ، وحجز التذاكر ، وإرسال برقية إلى أختها بميعاد وصولها لانتظارها فى مطار أورلى . ولعلها أدركت الحكمة من سلبية زوجها عندما انقشعت عنها نوبات الاكتئاب إلى حد كبير . وظلت على انشغالها حتى سافرت بالفعل مع كريم ونيرمين .

فجأة وجد طارق البيت موحشا لا يطاق . صحيح أن شريفة كانت منزوية وهادئة بل وصامتة ، إلا أنه كان يستشعر وجودها فى كل ركن منه . وبرغم أنها زهدت كل متع الزوجية تدريجا ، فإن حبه لها لم يتناقص . إنها كامنة داخله كجزء منه .

لم يعد يحتمل جو البيت بعد أن خلا من وجود شريفة ، وضحكات نيرمين ، وتعليقات كريم . وتعجب لسلبية السعادة فى هذه الدنيا . إن الإنسان لا يشعر بها إلا عندما يفقدها . كان يُضيق أحيانا بوجود شريفة السلبية الكئيبة وخاصة عندما يقارنها بنشوى المنطلقة المتوثبة . لكنه الآن لا يطيق البيت بدونها . ولذلك أطال من ساعات عمله بالمكتب ، أما أوقات فراغه فكان يقضيها فى النادى حيث اعتاد تناول الغداء يوميا ، وأصبح البيت فى نظره مجرد مكان للنوم والاستحمام .

شعرت نشوى بكل ما يدور داخل طارق ، وتأكدت من أن فرصتها الذهبية قد حانت كى تحسم أمرها سواء مع طارق أو مع هشام ، وإن كانت تتمنى الفوز بطارق ، حلم طفولتها القديم . لازمته كظله حتى

أدمن وجودها معه . وفجأة قالت له بعد أن أنهت بعض الأعمال معه فى مكتبه :

ــ إننى أشعر بالإجهاد كثيرا فى أشهر الحر .. ولذلك أرجو أن تمنحنى إجازة حتى نهاية أغسطس كى أقضيها فى شقتى بالمعمورة . فأنا من عشاق جو الإسكندرية ..

تعجب طارق للسؤال المفاجىء :

ــ وهل ستقضينها بمفردك ؟!

ــ أحيانا بمفردى .. وأحيانا أخرى مع ماما .. لكن لا تعبأ كثيرا .. فقد اعتدت هذا الوضع ..

حاول طارق كتمان شبح ابتسامة على شفتيه :

ــ قد تتعجبين لو قلت لك إننى فى حاجة أشد منك لمثل هذه الإجازة !! فلم أذهب إلى الإسكندرية منذ بداية الصيف ، وظلت شقتى بالمعمورة مغلقة طوال العام تقريبا ..

قالت نشوى كما لو كان طارق قد قرر السفر :

ــ ومن سينظفها لك قبل ذهابك ؟!

ــ لا يهم .. فالمهم هو تغيير الهواء والهرب من حر القاهرة ..

ــ وهل سنذهب سويا ؟!

ــ لا أعتقد فماذا سيقول الآخرون ؟!

ــ فليذهب الآخرون إلى الجحيم طالما أننا لا نفعل ما نخجل منه ..

ــ عندك حق .. فليس هناك ما نخجل منه .. ومع ذلك فليس هناك أطول من ألسنة السوء !!

ــ هذا إذا عرفت ألسنة السوء أننا ذهبنا سويا ؟! وعلى كل حال فأنا ابنة عمك وصديقة طفولتك .. فعلاقة الدم أقوى من أية علاقة أخرى ..

ـــ أرى فى منطقك قوة لا تبارى ..

وبعد ثلاثة أيام كانت العربة البيضاء الفاخرة منطلقة بهما فى طريقهما إلى الإسكندرية . كانت نشوى قد اعتذرت لهشام عن غيابها بسفرها إلى الإسكندرية لرعاية أمها التى أصابتها نوبة قلبية هناك والعودة بها إلى القاهرة بعد أن تتماثل للشفاء .

فى الطريق وضعت نشوى فى جهاز تسجيل العربة كل شرائط الأغانى الأجنبية التى كان طارق يعشقها فى صباه . وكلما صدحت أغنية جديدة كان طارق يسترق النظر إلى نشوى الجالسة بجواره مبتسما . كانت ترتدى بنطلون جينز أبيض وفوقه بلوزة حريرية بيضاء ذات أمواج زرقاء وبقع حمراء ، فى حين جمعت خصلات شعرها الذهبى بشريط كحلى ، وأخفت عينيها خلف نظارة زجاجها فى لون السماء الداكنة . أما طارق فكان يرتدى حلة من الكتان فى لون السماء الصافية ، ونظارة شمسية أنيقة .

كانت كل الأغانى التى اختارتها نشوى تختلف فى اللغة لكنها تشترك فى مضمون واحد : الحب ، وأيام السعادة ، وشمس القلوب المشرقة ، وأمواج الرغبة على شاطىء العشاق . وجنون اللحظة وعربدتها فى نبض الشرايين ، والإمساك بتلابيب الحياة قبل أن تتسلل كالماء بين الأصابع ، والتقاء الشفاه مع إيقاعات سيمفونية الكون ، وعناق الليل والنهار ، الموجة والشاطىء .. إلخ .

كان جو العربة المغلقة النوافذ المكيفة الهواء مشحونا بأحاسيس غريبة . أصرت نشوى على الإغلاق والتكييف بحجة تفادى التراب والضجيج فى حين أنه يعشق مناظر الحقول والأشجار والفلاحين والأطفال بطول الطريق الزراعى . لكنه رضخ لرغبتها كى يتركها على سجيتها ، وتكشف عن أعماقها الزاخرة بالغموض والإثارة . كان حنينه

لشريفة الغائبة قد بدأ ينبت داخله لدرجة أنه فكر فى اللحاق بها ، عندما تكالب عليه حنين الأب وحنين الزوج . لكن نشوى بقدرتها المغناطيسية المثيرة جعلته — من حيث لا يدرى — ينطلق إلى الإسكندرية براً بدلا من أن يطير إلى باريس جوًّا . إنه يدرك الآن أنه منطلق إلى عالم المغامرة والإثارة الذى غاب عنه طويلا . سيجده فى أمواج البحر المتلاطمة وهبات الرياح المشبعة بالملوحة ، وفى نشوى المنطلقة معه إلى عالم غامض يدغدغ الأحاسيس والغرائز . والإنسان فى لحظة الإثارة الممتعة الغامضة لا يسأل كثيرا عن النتائج ، لكنه يعرف الأسباب جيدا : إنها تكمن فى قاع البركة الراكدة التى فى حاجة إلى جلمود صخر حطه السيل من عل .

لم يعرف طارق لماذا تذكر هذا البيت من الشعر بالذات ، وهو الذى انتهت علاقته بالأدب والشعر بمجرد التحاقه بكلية التجارة ؟! يبدو أن الشعر مرتبط بالغموض والإثارة . إنه لا يتذكر حتى اسم الشاعر الذى قال هذا البيت ، ومع ذلك حرك فى وجدانه أحاسيس الصبا والطيش ، وجدانه الذى أوشك على التوقف عن النبض تحت طبقات الملل والضجر والسأم والإحباط .

كانت الأحاديث التى تبادلها طارق ونشوى بطول الطريق قليلة ، إذ يبدو أن الأحاديث الداخلية عند كل منهما قد سيطرت عليهما تماما . بل إن الصمت كان يتزايد كلما اقتربا من الإسكندرية . وعندما عبرا مشارفها قال طارق :

— حمدا لله على السلامة ..

ردت نشوى بنفس الاقتضاب :

— حمدا لله على السلامة ..

انطلقت العربة عبر طريق الكورنيش فى حين كانت الأمواج تلطم الصخور وكتل الأسمنت بعنف يصل برذاذها إلى العربات المسرعة أعلاها . بل إن رمال الشاطىء تآكلت وأصبح التعامل مباشرا وصريحا بين الأمواج وسور الكورنيش . فهل سيكون التعامل بينه وبين نشوى بالأسلوب المثير نفسه ؟ إنه شعر بمجرد دخولهما الإسكندرية أن الرمال التى كانا يقفان عليها قد غاصت فى قاع اللجة التى دارت بهما فى دوامة مخيفة لكن لذيذة .

عبرت العربة مزلقان المعمورة وسرعان ما كانت تقف أمام البيت . كانت الشقتان تقعان فى نفس البيت ، بل وفى نفس الدور . ذلك أن العائلة بفروعها كانت تحتل خمس شقق به . أخرج طارق حقائب نشوى أولا وصعد بها ثم عاد فحمل حقائبه وصعدت معه . فتح طارق شقته مسرعا وكأنه يحاول أن يتفاداها بقدر الإمكان قائلا :

— سأغتسل وأغير ملابسى ثم أمر عليك لتناول الغداء فى المنتزه !

تعجبت نشوى لهذه العجلة التى سيطرت على سلوك طارق لكنها هزت رأسها موافقة واستأذنت ودخلت شقتها وأغلقتها ، وكذلك فعل طارق الذى وجد رذاذ الرمال الناعم يغطى قطع الأثاث . رأى التليفون فأسرع إليه ورفع السماعة وحمد الله على وجود الحرارة . فقد طلب منهم الاتصال به من الشركة إذا جد أى جديد . شعر طارق بالوحدة والعزلة داخل الشقة المغلقة برغم وجود نشوى فى الشقة المجاورة ، بل إنه يكاد يسمع حركتها عبر الحائط المشترك بينهما . لكنه سرعان ما شغل نفسه بالاستحمام وتغيير ملابسه ، ثم جلس فى الشرفة يشاهد المصطافين بثياب الحمام ذات الألوان الساخنة : زرقة البحر وصفرة الرمال وخضرة النخيل وحمرة الورود وبياض قمم الأمواج .

كان موسم الاصطياف على أشده . اكتظ الشاطىء بالمظال الملونة والأجساد شبه العارية الملتحفة بالظل أو

بالرمل ، وبين الأمواج تراقص السابحون والسابحات مع الضحكات والصيحات . وبرغم بهجة المنظر وحيويته مر الوقت بطيئا . نظر طارق إلى ساعته فوجدها تناهز الثانية ظهرا . لم يكن قد تناول إفطاره فشعر بوطأة الجوع وتمنى أن تنتهى نشوى من زينتها بأسرع ما يمكن حتى يذهبا للغداء . لكنه لم يعرف على وجه التحديد : هل هو فى عجلة لعودة نشوى ؟! أم أنه في عجلة للغداء ؟! أما الشيء الوحيد الذى تأكد من وجوده هو أن الجوع يحاصره من كل جانب ، تماما مثلما تحاصر مياه البحر تلك الصخرة البعيدة عند خط الأفق .

تجاوزت الساعة الثانية والنصف ولم تأت نشوى . دخل وجلس فى الصالة حتى يسمع الجرس ، وبمجرد جلوسه دق الجرس فنهض قافزا وفتح الباب فإذا بعامل القمامة يسأل عنها فاعتذر طارق عن عدم وجودها وشكره وأغلق الباب . وعاد إلى الجلوس لكنه سرعان ما قفز من مكانه مرة أخرى وفتح الباب وبحركة لا إرادية ضغط على جرس شقة نشوى . لكنها لم تفتح . أعاد المحاولة مرة واثنتين وثلاثا فازداد قلقه ، وكان على وشك العودة إلى شقته عندما سمع مزلاج الباب يفتح ونشوى تقف ملفوفة فى روب الاستحمام الأحمر والماء لا يزال يتساقط من جسدها . إنه منظر شريفة المعتاد فى بيتها ، لكنه هذه المرة يمتاز بمذاق آخر . قالت له برقة ودلال :

ــ تفضل .. ادخل ..

أصابه الحرج وشعر أنه مبتل مثلها تماما . قال وهو ينظر ناحية السلم :

ــ سأنتظرك فى شقتى ..

ــ تفضل .. ادخل .. سأرتدى ملابسى فى دقائق .. ليس هناك فارق بين شقتى وشقتك ..

استأذن للحظة . أغلق باب شقته . دخل شقتها وأغلق بابها . جلس فى الصالة فى حين دخلت نشوى غرفة النوم . كانت الشقة نظيفة لامعة . فقال لها بصوت عال حتى تسمع :

ـــ إن شقتك فى منتهى النظافة أما شقتى فتسبح فى بحر من الرمال الناعمة .

أجابت من الداخل :

ـــ لقد غادرت ماما الشقة فى الأسبوع الماضى فقط ..

ـــ وكيف صحة طنط ؟!

ـــ الحمد لله .. إنها تهديك السلام باستمرار ..

كان باب الغرفة مفتوحا ولم تعبأ نشوى بإغلاقه ، فرأى طارق جسدها الأبيض الفارع فى مرآة التسريحة منعكسا ابتداء من العنق وحتى أعلى الركبة . كانت ترتدى ملابسها الداخلية التى شكلت إطاراً أسود دقيقا حدد ملامحه وتضاريسه بدلا من محاولة تغطيتها . حاول طارق أن يركز عينيه على أشياء أخرى ، لكن صورة نشوى كانت قد طبعت فى مخيلته بالألوان الطبيعية . أغلق عينيه فازدادت الصورة وضوحا . هل قصدت نشوى هذا أم أن صورتها انعكست فى المرآة دون أن تدرى ؟! وهل تدرى أن الجالس فى الصالة يراها ؟! بحث طارق عن إجابات مقنعة لكنه لم يجد .

خرجت نشوى من الغرفة . كانت ترتدى حلة حريرية فى لون جلد النمر فى حين تركت شعرها منسدلا حتى كتفيها . وقفت أمامه مبتسمة كنمر على وشك الانقضاض على فريسته . نهض طارق ضاحكا قائلا :

ـــ هيا بنا . إنى أكاد أموت جوعا ..

ـــ أما أنا ففى مقدرتى أن أبتلع خروفا ..

تبادلا الضحكات وسرعان ما كانا فى العربة التى انطلقت بهما حيث جلسا إلى المائدة فى شرفة الفندق الكبير الذى يطل على قصر المنتزه من ناحية ، وعلى بحيرة صغيرة محاطة بالكبائن والشاليهات من ناحية أخرى ، فى حين امتدت قنطرة عند التقاء البحيرة بالبحر حيث ارتفع زبد الموجات المتلاطمة بالجسر . قالت نشوى :

ــ أروع ما فى الإسكندرية أنك لا تعانى من حر القاهرة وترابها ..

ــ وأروع من ذلك أنها تذكر الإنسان بأحلام الصبا والأيام التى لم يكن يفرق فيها بين الخيال والواقع ..

حضر النادل منحنيا مقدما قائمة الطعام لكل منهما . لم يهتم طارق بقراءتها فى حين طلبت نشوى تشكيلة من السمك المشوى والجمبرى والكافيار ونبيذا أبيض ، وتبعها طارق فى طلب نفس الأطعمة دون تفكير .

قال طارق وهو يرتشف كأس النبيذ الأبيض مستمتعا بقطعة الثلج التى داعبت شفتيه :

ــ إن الشىء الوحيد الذى يضايقنى أننا أتينا فى قلب زحام الاصطياف .

ــ وأنا لا أحب الزحام والاختلاط بالجماهير مثلك تماما . ولذلك أحضرت معى مفتاح الكابينة فى المنتزه حتى تكون إجازة حقيقية ..

ــ إنك لا تنسين شيئا على الإطلاق ..

ــ إننى تلميذتك ..

ضحك وهو يتناول قطعة من الكافيار تبعها برشفة نبيذ :

ــ إنك تجيدين كل شىء .. حتى التواضع ..

وتعجب فى نفسه لماذا طلّق محسن هذه المخلوقة الرائعة التى جعلته ينسى العالم كله ؟! حتى نيرمين حبيبة قلبه الغائبة مع أمها فى

باريس لم يعد يتذكرها إلا كلما رأى طفلا جميلا مثلها ! لكن سؤالا ضخما تراقص أمام عينيه وضربت موجاته عقله : ما حقيقة ما يجرى الآن بينه وبين نشوى ؟! هل هو مجرد إجازة من العمل ؟ أم زمالة ؟ أم صداقة ؟ أم هروب من الملل ؟ أم بحث عن مغامرة مثيرة تعيد للحياة طعمها ؟ أم ... ؟ ثمْ خاف من أن يذكر الكلمة ، مجرد الكلمة لنفسه !! فى هذه اللحظة تظهر صورة شريفة لتغطى بصيرته ومخيلته ، بل وتمتد لتغطى الأفق كله .

لكن ما جدوى كل هذه الأسئلة الباحثة عن الغاية من كل هذا ؟! أليست السعادة التى يشعر بها الآن غاية فى حد ذاتها ؟! ولن تسفر هذه الأسئلة إلا عن تعكير لسعادته المثيرة ؟ وخاصة أنه لا يجد لها إجابات ، أو أنه يتحاشى أن يجد لها إجابات !! وما فائدة الإجابات التى تحمل فى طياتها أسئلة جديدة ؟! لا بد أنها تدخل بالإنسان فى دائرة مفرغة من الحيرة والشك والتردد والبلبلة !! ويكفيه مشاعر الملل والضجر والسأم والإحباط التى أفقدته مذاق حياته !!

بهذه القناعة مر الأسبوع الأول فى الإسكندرية كالحلم ، لدرجة أن من رآهما ظنهما عروسين فى شهر العسل . وعلى الرغم من أن نشوى أقنعته بأن يقطن معها شقتها لأن شقته كانت فى حاجة إلى عملية نظافة شاملة ، فإنه قنع بمجرد وجودها الحى المشرق معه ، وتأكد أن هذا هو الحل السعيد لجميع الأطراف المعنية دون أن يمس كرامة هذا أو يجرح شعور ذاك .

لكن المنوال الذى سارت عليه الأمور لم يعجب نشوى التى خافت أن تنتهى أيام الإسكندرية ولياليها دون أن تحدد موقع طارق على خريطة حياتها . لم تسفر سياسة التحفظ التى بدأتها عن شىء حقيقى ملموس ، بل يبدو أن طارقا استراح لهذه السياسة وبادلها تحفظا

بتحفظ ، ويكفى أنه لم يدخل غرفة نومها مرة واحدة حين كان يسأل عن أماكن الأشياء التى يريد استخدامها .

وقررت تغيير الأسلوب فى ذلك الصباح الذى لم يستيقظ فيه طارق حتى العاشرة . دخلت غرفة نومه فوجدته مستغرقا تماما فى النوم . كان فى بيجامته الحريرية البيضاء مثل طفل كبير على وجهه بقايا ابتسامة . هزت كتفه برقة عدة مرات ففتح عينيه ولم يصدقهما عندما رآها تقف بجوار سريره فى قميص نومها الأحمر القصير الذى أظهر جسدها الأبيض الفارع تحته مثل كتلة كامنة من النيران المتوهجة .

نهض جالسا وهو يرد على ابتسامتها الغامضة :

ــ صباح الخير يا نشوى .. هل تأخرت فى النوم ؟!

قالت وهى تتركه صوب الباب :

ــ هيا نقضى الوقت فى البحر .. إننى أفضله على الفراش !!

ثم اختفت قبل أن يتأسف لها أو يعتذر عن تأخيره . نهض مسرعا وانتهى من ارتداء ملابسه فى دقائق . وعندما بلغا بحيرة المنتزه تناولا إفطاراً خفيفا فى الكازينو المطل عليها ، ثم ذهبا إلى الكابينة وخرجا منها بثياب الاستحمام . ارتدت نشوى هذه المرة مايوه أسود من قطعتين لا تزيدان على حجم المنديل الصغير . كان منظرها رائعا مثيرا وهى مستلقية على رمال البحيرة الصغيرة الهادئة التى تحيطها الكبائن من ناحية والفندق الكبير من ناحية أخرى . لاحظت نشوى أن طارقاً يتأمل جسدها من طرف خفى وفجأة طلبت منه :

ــ هيا بنا .. أريد منك أن تعلمنى السباحة على الظهر ..

ــ إنك تجيدين كل أنواع السباحة ؟!

ــ ليس مثلك .. إنك أستاذ فى السباحة على الظهر ..

ــ لن أعلمك أكثر مما تعرفينه ..

ـــ سنرى ..؟!

وجذبته من يده وفى لحظة كانا وسط البحيرة الهادئة ، استلقت نشوى فوق سطح المياه ثم أحاطت عنق طارق بذراعها اليمنى كما لو كانت على وشك الغرق . اختلطت رائحة العطر تحت إبطها بملوحة الماء فصنعتا مزيجاً مثيراً استسلم له طارق تماما . كان قد أحس بطراوة جسدها الملتصق بجسده ، ثم احتضنته ملصقة خدها بخده كما لو كانت تخاف الغرق .

وأخيرا غاصت شريفة ومعها نيرمين وكريم فى لجة أعماقه ، فوجد نفسه يحتضن نشوى بقوة فهمت معناها جيدا بحيث تخلصت منه برقة ودعته إلى الاستلقاء على الرمال . تبعها إلى الشاطىء وهناك وضعت أصبعها بين أسنانها كما لو كانت قد تذكرت شيئا . قالت وهى تفتح حقيبتها الكتانية وتخرج منها علبة كريم للبشرة :

ـــ نسيت أن أدلك كتفى وظهرى بالكريم قبل الاستحمام !!

استلقت على وجهها وهى تمد يدها بالعلبة لطارق الذى فتحها بدوره وأخذ منها ما يكفى لتدليك كتفيها وظهرها . كانت أول مرة يلمس فيها بشرتها الناعمة الحريرية ، فى حين أغمضت عينيها فى نشوة بالغة . تركت أصابعه تجرى حيث شاءت . ومع استسلامها الكامل المتصاعد تلاشى داخله إحساس القرابة أو الصداقة أو الزمالة . فجأة لم ير فى نشوى سوى أنثى متفجرة كأنها ظاهرة طبيعية مثل الظواهر المحيطة بهما . كيف أمضى هذا الأسبوع دون أن يكتشف هذا الكنز الموجود فعلا بين يديه ؟! إنه ليس محروما من الجنس . فلم يحدث أن بخلت عليه شريفة فى أية لحظة طلبه ، وإن كانت تؤديه فى كثير من الأحيان كواجب ، لكنها لم تكن تدرى أنها تجرح شعوره من حيث لا تقصد . إنه يريد التجاوب الساخن الذى يحيل الجسدين إلى جسد واحد يفور

بوحدة الوجود . ومع الأيام ظن أن هذه الرغبة هى مجرد حلم جميل .

أما الآن مع نشوى المستلقية بجسدها المنير بضوء الشمس والمتضوع بملوحة الهواء ورذاذ العطر ، فإن مجرد لمس اصابعه لكتفيها وعنقها وظهرها أثار فى داخله موجات الرغبة الهادرة التى تمنى أن تغرقه فى لججها ودواماتها . ها هو الآن يعيش حلم الرغبة القديم لمجرد لمسات أصابع !! إن أروع ما فى الجنس هو التوابل وفواتح الشهية للمتعة والرغبة والحياة ، أما الجنس نفسه فهو المأدبة الدسمة التى إذا استمرت بنفس التكرار والرتابة فلا بد أن يأتى الملل فى أعقاب الشبع . لذلك قد يشعر المتزوجون بالتخمة الجنسية ومع ذلك لا يصلون إلى مرحلة الإشباع العاطفى . ويبدو أن الدكتور عبد الهادى قد دفع بشريفة للقيام بهذه الإجازة من الحياة الزوجية بهدف إثارة الإحساس بالجوع بينهما ، لكنه لم يكن يعلم أن شهيته ستفتح لطعام آخر حريف ومثير بعد مرحلة طويلة من الحلوى التى أصابته بعسر الهضم .

ابتسم طارق لهذه الخواطر فى نفس اللحظة التى استدارت فيها نشوى لتستلقى على ظهرها عندما توقف عن التدليك دون أن يدرى . لاحظت بقايا الابتسامة فسألته ضاحكة :

— أريد أن أبتسم معك ؟! ما سر هذه الابتسامة ؟!

تفادى عينيها وهو يقول :

— إنها ابتسامة الشعور بالسعادة ..

فاجأته بسؤال حاسم حاد وهى تهم بنفسها جالسة :

— هل تشعر بالسعادة معى ؟!

تلعثم وهو يحاول الإجابة جاهداً :

— وهل هناك إنسان لا يشعر بالسعادة فى وجودك ؟!

قالت بنفس الحسم والحدة الساخنة :

ـــ إننى أتكلم عنك بصفة خاصة ..
استسلم تماما وهو يقول :
ـــ لا أخفى عليك يا نشوى .. إننى فى منتهى السعادة معك ..
ـــ إننى أشعر بقدرة فائقة على إسعادك ..
ـــ وهل تشعرين بالسعادة معى ؟!
ـــ إن سعادتى فى إسعاد الآخرين ..

لم يدر إلا وهو يمسك بيدها ويقبلها فى حنان بالغ ، لكنها سحبتها منه برقة سريعة ثم نهضت وألقت بنفسها فى البحيرة وخلفها طارق لا يلوى على شىء .

مرت عدة أيام ، وذات مساء كانا يجلسان فى شرفة المعمورة يتابعان القمر وهو يظهر ويختفى خلف السحب الشفافة ، فى حين التحف البحر بالظلام ولم تبد منه سوى قمم موجاته البيضاء مع إيقاعات هديره المنتظمة . وفجأة مرت أسفل الشرفة العربة التى ترش المبيد الحشرى لتقتل الناموس والذباب ، فملأت الجو بسحابة من الدخان الأبيض ذى رائحة الغاز النفاذة ، فهرعت نشوى إلى الداخل وخلفها طارق الذى أغلق الباب الزجاجى ، وعندما استدار ارتطم جسمه بجسم نشوى التى حاصرته حتى كاد أن يلتصق بالزجاج .

ورغم سحابات الدخان الأبيض التى بدأت تتلاشى مع الهواء ، فإنه رأى فى عينيها نظرة غامضة مثيرة أقل ما يقال عنها إنها نداء الأنثى . لم تتحرك من مكانها ، وعندما التصقت به شعر بجحافل النمل تشن هجوما كاسحا بدأ من أطرافه وجرى فى عروقه مجرى الدم . لم يدر إلا وهو يعتصرها بين ذراعيه ، استسلمت تماما فأطبق على شفتيها حتى اصطكت الأسنان واصطخبت الصدور وسال اللعاب .

سار بها صوب الأريكة فظنت أنه فى طريقه معها إلى غرفة النوم

فتخلصت من ذراعيه وأحضانه برقة وجلست على الأريكة وهو بجوارها . سألته :

ــ ما هذا الذى فعلته ؟!

ــ إننى أسأل نفسى السؤال نفسه !!

قالت وهى تنظر إلى قدميها المضمومتين أسفل الأريكة :

ــ إننى أفضل العودة إلى القاهرة .. قبل أن أرتكب غلطة فاحشة أندم عليها العمر كله ..

كانت تصر على الظهور بهذا التحفظ . فهى لا تريد أن يظنها طارق سهلة أو رخيصة لمجرد أنها مطلقة . قال طارق وهو ينظر إلى وجهها الذى لوحته الشمس وأصابته ببعض التسلخات الخفيفة :

ــ لم أقصد شيئا من هذا القبيل !!

ــ حتى لا يحدث سوء تفاهم بيننا .. فأنا أقول لك يا طارق إننى لا أرضى أبدا أن أقوم بدور العشيقة !!

ــ لم أفكر فى هذا على الإطلاق !!

ــ لا بد أنك كنت تفكر فى شىء ما على الأقل ؟!

ــ إذا كنت قد شعرت بأية إهانة .. وإذا كنت متأكدة من شعورك تجاهى .. فإننى أرحب بالزواج منك !!

تلقت النبأ كما لو كان جزءا طبيعيا من تفكيرها واستطردت :

ــ ولا أرضى أيضا أن أقوم بدور الزوجة الثانية ؟!

هنا استيقظ طارق على صورة شريفة تغطى الأفق كله .تملأ فراغاتها ضحكات نيرمين وابتسامات كريم . صمت ولم يحر جوابا . شعرت نشوى أن أوان الضربة القاضية لم يحن بعد . تراجعت وهى تقول بابتسامة عذبة :

ــ تكفينا أحاسيس الصداقة والزمالة والقرابة .. إننى أحرص على حياتك الزوجية مثل حرصك عليها تماما ..

سرى الارتياح داخله فربت على يدها بحنان قائلا :

ـــ إننى مدين لك بأسعد لحظات عمرى ..

قبلته فى خده قبلة سريعة توحى بالأخوة بعد أن تأكدت أن العصفور على وشك الدخول فى القفص . نهضت قائلة :

ـــ هيا بنا نتناول العشاء خارجا ..

نهض صامتا وخرجا سويا . عادا متأخرين وعندما أخرج مفتاح شقة نشوى سمع جرس التليفون يدق داخل شقته.فأسرع بفتحها واستطاع رفع السماعة قبل أن يصمت وإذا بالدكتور محسن على الطرف الآخر يخبره بعودة شريفة بعد يومين ، وأنهم حاولوا الاتصال به مراراً فى الشركة لكن أحدا لم يرد ، فاضطر إلى الاتصال به فى تلك الساعة المتأخرة حتى يضمن وجوده .

عرفت نشوى مضمون المكالمة دون أن تستمع إلى كلمة واحدة مما قاله محسن الذى لم تسترح لقيامه هو بالذات بهذه المهمة . لكن ثقتها بنفسها أكدت لها أن طارقاً لن يخرج بعد ذلك من منطقة نفوذها إلا بإذنها ، ولن يخرج .

نام طارق ليلة غريبة . سمع فيها أنفاس نشوى النائمة فى الغرفة المجاورة ورأى فيها صورة شريفة وهى تحتضن طفليها . وفى الصباح المبكر استيقظ لإعداد الحقائب وسرعان ما دخلت نشوى بقميصها الشفاف القصير تساعده فى مهمته . ولم يستطع منع عينيه من تأمل تفاصيل جسدها الجميل خلسة ، لكنها كانت متأكدة من نظراته دون أن تلتفت إليه .

وقف طارق ومعه مدام عنايات فى انتظار خروج ركاب الطائرة الفرنسية من منطقة الجمرك . وعندما بدءوا فى الخروج عبر الممر المؤدى إلى موقف العربات الخاصة وسيارات الأجرة ، لمح طارق شريفة تدفع أمامها عربة الحقائب يساعدها كريم على يمينها ونيرمين على يسارها . لم ينتظر طارق وصولهم إليه بل أسرع وإذ بنيرمين عندما رأته ، تترك العربة وتنطلق كالصاروخ لتقفز بين ذراعى أبيها وتحتضنه بعنف ، وتمطر وجهه بقبلات أعنف .

تبادل الجميع القبلات والأحضان ، وبعد أن استقروا فى السيارة ، شريفة بجوار طارق ، وكريم ونيرمين مع جدتهما فى المقعد الخلفى ، انطلقت السيارة وكانت مصابيح الطريق مطفأة بحيث لم يبد فى الظلام سوى الأشياء التى وقعت عليها الأنوار الكاشفة للسيارة . كان طارق يبحث عن مدخل مريح للحديث حتى لا تشتم منه شريفة أية رائحة لنشوى القابعة داخله ، لكن شريفة وفرت عليه هذا الجهد بقولها :

— أمل وزوجها والأطفال يهدونكم السلام ..

رد طارق متسائلا :

— وكيف حالهم ؟! لم نرهم منذ زمن طويل ؟!

— إنهم قادمون إلى القاهرة الأسبوع القادم .. فقد نقل مصطفى إلى سفارتنا فى بيرو وهو يقوم الآن بإخلاء طرفه .. وسيأتى إلى هنا لقضاء إجازته قبل السفر إلى مقر عمله الجديد ..

تدخلت الأم فى الحوار من المقعد الخلفى :

ـــ من يرى أمل الآن يقول إنها فرنسية مائة فى المائة ..
تجاهل طارق كلامها وسأل شريفة :
ـــ وأنت الآن .. كيف حالك ؟! كنت أتوقع أن يمتد بك المقام أطول من ذلك ؟!
ـــ ألم تفتقدنى ؟!
قال طارق محاولا تغطية هفوة لسانه :
ـــ افتقدتك كثيرا .. لدرجة أننى لم أستطع البقاء فى البيت بدونك .. فسافرت إلى الإسكندرية ..
ـــ لاحظت سمرتك البرنزية من أول لحظة ..
ـــ وكيف قضيت وقتك فى باريس ؟!
ـــ كنت مشغولة بشراء بعض الملابس والعطور !!
علق طارق :
ـــ هذه أول مرة تذهب فيها نيرمين إلى باريس ؟!
قالت شريفة :
ـــ وتعتبر أول مرة لكريم أيضا .. لأنه كان معنا فى الزيارة السابقة ولم يتعد سنة ونصفا من عمره ..
تدخلت نيرمين فى الحوار وهى تداعب شعر أبيها من الخلف :
ـــ رأينا برج إيفل .. والشانزليزيه ..
وعندما عجزت عن إكمال ذكر ما شاهدته أكمل كريم :
ـــ ومتحف اللوفر .. وقصر فرساى .. وقوس النصر .. ومسلتنا فى ميدان الكونكرد .. والمولان روج .
قالت مدام عنايات لحفيديها :
ـــ ستقصّان علىَّ كل شىء ..
سأل طارق زوجته :

ــ هل افتقدتينى ؟!

ــ وهل هذا سؤال ؟! منذ أن غادرت الطائرة مطار أورلى وأنا أعد الدقائق !!

لم يرد طارق وانتاب شريفة إحساس بخفوت الفورة التى ميزت سلوك طارق تجاهها . فى الطائرة استمتعت بالرغبة التى حملتها على أجنحتها وهبطت بها فى مطار القاهرة . فى باريس سارت بمفردها أو مع أختها مسافات تزيد على تلك التى سارتها طوال عمرها فى القاهرة . كانت الأنوار تسطع فى عينيها حيثما حلت ، والعطور الباريسية تتخلل أنفها أينما سارت ، والخصلات الذهبية تتناثر هنا وهناك ، والعيون الخضراء تغازل الحدائق والشجر ، والزرقاء تناجى السماء كلما كشفت السحب عن وجهها المشرق الصبوح .

لا تعرف شريفة كم مرة قطعت فيها شارع الشانزليزيه جيئة وذهابا ؟ وكم عدد المحال التى ترددت عليها ؟ والملابس والعطور والمجوهرات التى اشترتها ؟ فى حين كانت المسافات التى تقطعها على قدميها لا تزيد على المسافات بين غرف شقتها !! فى البداية نسيت كل شىء : زوجها والدكتور عبد الهادى والأصدقاء وشلة النادى ، وبمرور الأيام طفت صورة طارق على صفحة الذكريات مع عودة الرغبة تدريجا ، لدرجة أن أختها أمل ضبطتها ذات مرة متلبسة بشرود الذهن والنظرات التائهة التى لا ترى ما أمامها . سألتها أمل ضاحكة :

ــ من أخذ عقلك فليهنأ به !!

ابتسمت شريفة لكنها لم ترد . استأنفت أمل حديثها :

ــ إنك لم تغيبى عن طارق كثيرا .. وكلها أيام قلائل وتعودين إلى حبيب القلب .

وقعت كلمة « حبيب القلب » من نفسها موقعا غامضا مثيرا لذيذاً .

نعم إنه حبيب القلب كأنها تدرك هذه الحقيقة لأول مرة . ماذا دهاها كى لا تحذو حذوه فى عشقه للحياة ؟! إن الأمر لم يكن محتاجا على الإطلاق كى تتردد على الدكتور عبد الهادى ، وقبله الدجال باتع . لم يكن الأمر أكثر من سحابة صيف لم تلبث أن انقشعت ، وها هى الآن فى طريقها إلى حبيب القلب بكل نهمه للحياة ، ستستمد من نهمه طاقة متجددة . ألم يقل لها الدكتور عبد الهادى إن علاجها بين يديها ؟!

كانت هذه الخواطر التى داعبت خيال شريفة ، زادها طوال الرحلة من باريس إلى القاهرة . لكن يبدو أن شطحات خيالها قد فاقت الواقع وتجاوزت عشق طارق للحياة !! لقد وجدته هادئا متأملا ، يكاد يكون شارداً !! هل هناك ما يشغله ؟! كانت تظن أنه سيعتصرها بين ذراعيه عند عودتها ، لكنه قبَّلها فى وجنتيها قبلة لم تعهدها فيه من قبل ، قبلة رقيقة هادئة تكاد تكون أخوية . سألته والعربة تمرق فوق كوبرى أكتوبر :

ــ هل استمتعت بإجازتك فى الإسكندرية ؟!

ــ كانت هروبا من الملل والوحدة أكثر منها إجازة حقيقية !

ــ هل كنت بمفردك ؟!

وجد نفسه يكذب لأول مرة منذ زواجه :

ــ قابلت هناك بعض الأصدقاء القدامى ..

ساد الصمت ما عدا أزيز المحرك الخافت وحفيف الإطارات فوق الطريق . تذكر طارق جلسة نشوى على نفس المقعد الذى تحتله شريفة الآن . تخيل أنه كاد يشم عطرها داخل العربة المغلقة . طرد صورتها وهى مستلقية على شاطىء المنتزه ، وهى فى قميص نومها الأحمر ، وهو يقبلها فى شبق وجنون .

هبطت العربة منزل كوبرى أكتوبر وشقت طريقها بين الأشجار والمصابيح الخافتة بحذاء سور نادى الجزيرة حتى توقفت أمام الفيللا .

وسرعان ما كانت سنية والبواب وزوجته يحملون الحقائب ويهنئون بالسلامة .

جلس الجميع فى قاعة المدخل يتبادلون الحديث . قالت شريفة لطارق :

ــ لقد اشتريت لك القمصان وأربطة العنق التى تفضلها ..

أجابها دون أن يحرك ساكنا :

ــ لا حرمنى الله منك ..

دق جرس التليفون فى غرفة المكتب فأسرع إليه طارق وفى أعقابه نيرمين التى كانت جالسة على ساقيه . أما كريم فحمل الحقيبة الصغرى واختفى فى غرفته . اقتربت مدام عنايات من ابنتها وهى تنظر حولها فى حذر :

ــ لا أريد أن أعكر عليك بهجة العودة ..

سألتها شريفة بسرعة خائفة :

ــ هل حدث شيء فى غيابى أخفيتموه عنى ؟!

ــ كل ما أستطيع أن أقوله الآن : لا تتركى زوجك بعيدا عن عينيك !!

ــ ماذا تقصدين ؟! إن الشك لم يعرف طريقه إلينا من قبل ؟!

ــ ألم تلاحظى أن العطر الذى تستخدمه نشوى يملأ العربة كما لو كانت موجودة فيها بالفعل ؟!

ابتسمت شريفة فى حنق قائلة :

ــ أرجو ألا تكون فكرة جديدة مثل فكرة البروفسير باتع ؟!

ــ إننى حذرتك .. ويمكنك التأكد بنفسك !!

ــ لا يمكن أن أسمح لنفسى بالشك فى طارق لمجرد عطر أو وهم أحسست به فى العربة !! كما أنه من الطبيعى أن تركب معه العربة فى بعض

الأحيان بحكم عملها معه !!

ـــ أليست لها عربتها الخاصة ؟! ثم ما أدراك أنها لم تقض معه إجازته فى الإسكندرية ؟!

ـــ كيف عرفت هذا ؟! هل أنت متأكدة مما تقولين ؟!

ـــ سألت عنه بالتليفون فى أثناء غيابك ، وعندما لم أجده سألت عن نشوى فقالوا لى إنها فى إجازة أيضا ..

ـــ هذا لأن عملها مرتبط بعمله .. وليس بالضرورة أن تقضى إجازتها معه .. أرجوك يا ماما لا تفسدى علىَّ بهجة العودة لمجرد ظنون وشكوك لا أساس لها من الصحة ..

نهضت مدام عنايات قائلة :

ـــ على كل حال حمداً لله على السلامة .. ولن تخسرى شيئا إذا تأكدت بنفسك مما قلت .. تصبحين على خير ..

سارت تجاه باب الشقة وخلفها شريفة تودعها وتشكرها على مجيئها مع طارق لاستقبالها فى المطار .

دخلت شريفة غرفة المكتب وجدت زوجها لا يزال منهمكا فى مكالمته التليفونية فى حين قبعت نيرمين فوق المكتب أمامه تداعبه وتميل عليه لتقبله من حين لآخر . تركته شريفة لتدخل غرفة النوم حيث فتحت الحقيبة الكبرى وأخرجت منها قميص نوم لا يكاد لونه الأحمر يخفى شيئا . تخلصت من كل ملابسها ثم ارتدت القميص واستلقت على السرير بعد أن أضاءت الأباجورة الحمراء وأطفأت الثريا ثم انتظرت .

سمعت زوجها وهو ينهى المكالمة ويضع السماعة . نظرت إلى المنبه وتقلبت فى فراشها . لكن بمجرد أن أطفأ طارق نور غرفة المكتب سمعت رنين التليفون مرة أخرى وإذ بطارق يرد ويرحب بمحسن ويشكره على اهتمامه وكان الحديث ذا شجون كالعادة بينهما .استمرت المكالمة حتى

اقتربت عقارب المنبه فوق الكومودينو من منتصف الليل . لكن شريفة برغم إرهاق السفر والاستيقاظ المبكر لم تستسلم لسلطان النوم . أطفأت نور الأباجورة حتى تترك زوجها يتصرف على سجيته .

انتهت المكالمة وسمعت زوجها يأمر نيرمين فى حنان حازم بالذهاب إلى غرفتها للنوم . دخل غرفة النوم . لمحت شبحه فى ضوء المصباح الخافت فى الصالة . تجرد من حلته وارتدى بيجامته وسرعان ما استلقى إلى جوارها . نظر إليها فوجدها مغمضة العينين فظن أنها نائمة ، فنام بدوره .

تخبطت شريفة بين دوامات الحيرة والشك والقلق ، بين ما سمعت من أمها وبين ثقتها فى زوجها ، بين ما لمسته فى سلوكه الساكن وبين إخلاصه الذى واكب حياتهما الزوجية بطول تاريخها . ظلت الكفتان فى تعادل شبه تام بين الشك واليقين ، لم يلسعها جحيم الشك ولم تستمتع بجنة اليقين . كان طارق كعادته ، مهذبا ، رقيقا ، حساسا يرعى شعورها فى كل كبيرة وصغيرة . لكن إحساسها الغامض الدفين أكد له أن سخونة عواطفه التى اعتادتها قد هبطت إلى نوع من الفتور . وضايقها خاطر أوحى إليها بأن زوجها ربما يكون قد أصيب بنفس حالتها : الاكتئاب ..

لم ينقذها مؤقتا من هذه الحيرة الكئيبة سوى وصول أختها أمل وأسرتها من باريس فى إجازة قصيرة قبل سفرهم إلى بيرو . انشغلت شريفة فى الترحيب بأختها وإقامة الحفلات والمآدب وزيارة الأقارب . وكانت سعادة مدام عنايات بهذه الأيام غامرة لم يقلقها فيها سوى انتقال زوج ابنتها إلى بلد بعيد بحيث قد يتعذر عليها زيارتها ، وعدم اهتمام زوج ابنتها الأخرى : طارق بالضيوف وانشغاله الدائم بعمله .

أما طارق فلم يكن يميل إلى أمل كثيرا لتصنعها البالغ فى معاملة الآخرين . لم تكن تتكلم سوى الفرنسية ، وقلدت الفرنسيين فى كل سلوكهم . كذلك فإن ضجيج الزيارة منحه فرصة أطول للبقاء مع نشوى التى لم يعد يجد سعادة إلا فى صحبتها وابتسامتها ولمساتها . بل إنه تجرأ وأصبح يقابلها فى النادى على انفراد فى فترة انشغال شريفة بضيوفها .

وكان تبريره لنفسه أنها مساعدته وابنة عمه ، وزوجته تعلم هذا ، وأنه لا يوجد ما يخفيه بعيدا عن الأعين أو ما يخجل من إظهاره . لكنه كان مقتنعا فى داخله بأن نشوى تعنى بالنسبة له أكثر من مساعدة وأكثر من ابنة عم ، ومع ذلك لم يعترف لنفسه بأنه يحبها .

وكانت نشوى سعيدة بظهورها معه علنا فى النادى ، بل وأصرت على مشاغبة ومداعبة كل من قابلتهم على سبيل تأكيد أية ظنون قد تثار . ولم تكن تتركه إلا لمقابلة هشام خلسة حتى تؤكد له أنها بسبيل إقناع أسرتها للموافقة على الزواج منه والسفر معه إلى باريس . وقد نجحت نشوى تماما فى أن تخلق عالما منفصلا ومستقلا لكل من طارق وهشام ، كل على حدة . وكان كل منهما سعيداً بعالمه الخاص معها ، وإن كان هشام قد بدأ يشعر بالقلق تجاه تسويف نشوى لموضوع الزواج ، ولم تعد حججها تقنعه تماما وهو المثقف الذى عرك الحياة وخبرها . لكنه لم يتعود إساءة الظن بالناس ، فهم فى نظره أبرياء حتى تثبت إدانتهم .

أراد هشام ذات مرة أن يفاجىء نشوى فزارها فى مكتبها لأول مرة ، لكنه فوجىء بذهولها الذى حاولت تغطيته بمسحة من الدبلوماسية الرقيقة . قال هشام وهو يجلس أمامها :

ــ لم أعرف أن مكتبك بهذه الأناقة والفخامة . ففى مكتبى يشاركنى ثلاثة زملاء ..

ــ عندما سنسافر سويا إلى باريس .. أعتقد أنك ستنفرد بمكتبك ..

قال هشام وكأنه تذكر شيئا :

ــ حركة التنقلات ستصدر قريبا .. وقد تأكّد نقلى إلى باريس ..

ــ مبروك ..

ــ ومتى أسمع « مبروك » الأهم ؟!

ــ قريبا إن شاء الله .. لقد أخبرت عمى وبارك مشروعنا للزواج .. ولم

يتبق سوى ماما .. وأعتقد أنها لن ترفض ..

ــ أرجو أن نتزوج قبل سفرى إلى باريس ..

ضحكت نشوى قائلة :

ــ تقصد سفرنا ..

فى نفس اللحظة دخل طارق يطلب بعض الملفات من نشوى فوجد هشاماً الذى وقف تحية له بحركة لا إرادية ، فمد طارق يده وتصافحا فى حين نهضت نشوى فى حرج لم يلحظه أحدهما ، وقالت مشيرة إلى طارق وموجهة حديثها إلى هشام :

ــ طارق بك .. صاحب الشركة ومديرها ..

ثم أشارت إلى هشام وقالت لطارق :

ــ هشام بك .. دبلوماسى منقول إلى سفارتنا بباريس .. وصديق العائلة ..

رنت كلمة « صديق العائلة » رنينا غريبا فى أذنى طارق لكنه لم يستوعب معناها وقال متسائلا :

ــ منقول مكان مصطفى سراج الدين ؟!

سأل هشام :

ــ وهل سيادتك صديق لمصطفى بك ؟!

ــ إنه زوج أخت المدام ..

ــ لقد رقى ونقل إلى بيرو ..

ــ إنه الآن فى القاهرة .. إذا أحببت أن تقابله !!

ــ يشرفنى أن أقابله ..

شعرت نشوى بخطورة اللقاء بين عالمى طارق وهشام ، فربما تحول إلى صدام بين كوكبين . قالت بسرعة خاطفة :

ـــ أخشى أن يكون مصطفى بك ومدام أمل مشغولين بالإعداد للسفر إلى بيرو ..

ظن طارق أن نشوى لا تريد له أن يدخل فى دوامة الضيافة التى قد تبعده عنها ، فسعد لهذا الخاطر وقال :

ـــ لا أعرف ظروفهم بالضبط .. لكن على كل حال أنا تحت أمرك ..

رد هشام فى حياء متواضع :

ـــ شكرا يا فندم ..

قال طارق له :

ـــ تفضل استرح ..

انشغل طارق بفحص بعض الملفات ، فى حين جلس هشام وتنقلت عينا نشوى من طرف خفى بينه وبين طارق الذى سرعان ما خرج حاملا ملفاً فى يده ومستأذنا من هشام . تنفست نشوى الصعداء وجلست سائلة فى ابتسام :

ـــ ماذا تحب أن تشرب ؟!

ـــ شكرا .. أردت أن أراك فقط وخاصة بعد طول الغياب فى الإسكندرية .. بالمناسبة .. كيف حال ماما ؟!

ـــ الحمد لله ..

ـــ يبدو أن الأزمة القلبية مرت بسلام ..

كانت نشوى قد نسيت أنها اعتذرت له عن ذهابها إلى الإسكندرية بمرض أمها ، لكنها سرعان ما تذكرت وتداركت الأمر وأكدت له :

ـــ لقد نصحها الطبيب بالاسترخاء على الشاطىء .. ولذلك تلاحظ احمرار بشرتى ..

دق جرس الاستدعاء فى مكتب نشوى فنهضت مستأذنة من هشام قائلة :

ـــ عن إذنك .. البك المدير يريدنى ..
نهض هشام بدوره قائلا :
ـــ يكفى أننى رأيتك .. سأتصل بك تليفونيا لتحديد ميعاد للقاء ..
ـــ يسعدنى أن أراك فى أى وقت ..
مضى هشام فى طريقه ، فى حين مضت نشوى إلى مكتب طارق الذى قال لها عندما رآها تدخل :
ـــ نشوى .. سنضطر للمجىء لإكمال العمل فى المكتب بعد ظهر اليوم ..
ابتسمت نشوى وهى تجلس :
ـــ ألم تسأم الجلوس بين أربعة جدران ؟!
ـــ وأين نذهب ؟!
ـــ يمكننا أن نتناول الغداء فى النادى .. على أن نأخذ الملفات معنا ونكمل العمل وسط الخضرة والماء .
سكتت مبتسمة فأكمل طارق :
ـــ والوجه الحسن ..
ضحكت نشوى . فعلّق طارق :
ـــ وخاصة أن شريفة ذهبت إلى الإسكندرية مع ضيوفها ..
نظرت إليه نشوى نظرة غائمة وهى تقول :
ـــ آه .. لا تذكرنى يا طارق بأيام الإسكندرية ولياليها ..
لم يحتمل نظراتها فأشاح بوجهه هامسا :
ـــ فعلا .. كانت حلما .

قاد طارق عربته فى طريقه إلى مستشفى الدكتور محسن . لم يجد مبرراً واحداً لإصرار محسن على أن يمر عليه بعد انتهاء العمل . حاول أن يستفسر منه عن السر فى طلبه فأكّد له أن ما يريد أن يقوله لا يمكن أن يقال فى التليفون . وتعجب طارق : ما السر أو الأسرار التى يريد أن يدلى بها ؟! على العموم إنها مسألة دقائق معدودات وسيقف أمام محسن وجها لوجه .

توقفت العربة وخرج منها طارق صاعداً السلـــم . وسأل فى استعلامات المستشفى عن الدكتور محسن فقادته إحدى الممرضات الحسناوات إلى مكتبه حيث وجده يغسل ذراعيه فى الحوض من الجبس العالق بهما فى حين خرجت من المكتب أو العيادة الصغيرة مريضة علقت ذراعها فى عنقها . بمجرد أن رأى الدكتورر محسن طارقا أخبر الممرضة التى اصطحبته بمنع دخول المكتب لأى أحد إلى أن يسمح بذلك .

ازدادت دهشة طارق لكل هذه الاحتياطات . أغلقت الممرضة الباب خلفها وإذ بهما وحدهما وجها لوجه . قال محسن :

ــ أهلا طارق .. تفضل بالجلوس ..

جلس طارق فى حين استرخى محسن خلف مكتبه مشعلا غليونه قائلا :

ــ ماذا تشرب ؟!

ــ لا شيء .. أريد أن أعرف السر الذى أتيت من أجله والذى لا يمكن أن يقال فى التليفون ..

ـــ أردت أن أستمتع بزيارتك والحديث معك !!

ابتسم طارق ابتسامة خفيفة وقال :

ـــ لا تتخابث يا محسن .. ادخل إلى الموضوع مباشرة ..

ـــ طالما أنك تريدها جلسة عمل .. فأنا تحت أمرك ..

نهض محسن ودار حول المكتب وجلس فى مواجهة طارق . أخذ نفسا عميقا من غليونه ذى التبغ المعطر وقال :

ـــ أنت تعلم يا طارق أن أخوّتنا هى أخوَّة العمر .. وأن ما يمس حياتك يمسنى تماما ..

اجتاح القلق طارقا وقال فى عجلة :

ـــ بلا مقدمات يا محسن .. أرجوك ..

نظر إليه محسن نظرات متحفزة وقال :

ـــ قد لا تدرى يا طارق أن حديث أعضاء النادى المفضل الآن فى جلساتهم هو العلاقة بينك وبين نشوى .. العلاقة التى تخفيها تحت قناع ملفات العمل ..

ـــ وأنا لا يهمنى مجرد ثرثرة تصدر عن عاطلين أو مجرد عجائز !!

ـــ لكننى تهمنى حياتك وبيتك !

ـــ ماذا تقصد ؟!

ـــ شريفة ستعلم إن عاجلا أو آجلا ..

ـــ تتكلم كما لو كانت هناك علاقة حقيقية بينى وبين نشوى ؟!

ـــ ليست هذه هى القضية .. فكم من إشاعات كاذبة هدمت حياة زوجية كانت قائمة على الصخر ..

ـــ ثقة شريفة فىَّ ليس لها حدود ..

ـــ كل شىء فى هذا العالم له حدود ..لأن العالم نفسه له حدود .

ـــ هل قالت لك شيئا ؟!

ــ لم تقل .. لكنني أعرف نشوى جيدا .. إنها تهوى تدمير الآخرين وأن يشربوا من نفس كأس الفشل التى شربت منها مرتين من قبل فى حياتها الزوجية .

بدأ القلق داخل طارق يتحول إلى حب استطلاع جارف لمعرفة الغموض الذى اكتنف حياة محسن ونشوى وطلاقهما ، فقد رفض كل منهما الاقتراب من قريب أو من بعيد من الأسباب التى أدت إلى طلاقهما . وبعد أن أصبحت نشوى من الأهمية بمكان فى حياته ، فقد اشتعل شوقا لمعرفة الجانب الآخر . سأله :

ــ اسمح لى أن أسألك : لماذا تزوجتها وأنت تعرف هذا عنها ؟

ــ سؤال فى الصميم .. أنت محق تماما فيه .. لكننى لم أكن أعرف هذا عنها .. بل إننى عرفت نقيضه تماما .. عندما عرفتها وخطبتها كانت مثل الملكات الساحرات اللاتى سمعنا عنهن فى الأساطير .. كلها سحر وجاذبية وحب وعواطف جارفة .. ولم أعرف وقتها أنها مثل ملكات النحل .. يدمرن أى ذكر يقترب منهن ..

ــ هل تعنى أنها انقلبت بعد الزواج من الضد للضد ؟!

ــ لا أقصد أنها مصابة بانفصام الشخصية .. فهى تدرك جيدا ما تفعل .. بل إننى لم أجد امرأة فى حياتى تجيد التخطيط مثلها !!

ــ وإذا كانت تجيد التخطيط إلى هذا الحد .. فلماذا فشلت مرتين فى حياتها الزوجية ؟!

لاحظ محسن اهتمام طارق المتزايد بها ، لكنه لم يظهر شيئا لطارق واستمر فى الإجابة على أسئلته :

ــ إن طبيعتها كانت تطغى دائما على قدرتها للتخطيط . فى بادىء الأمر تتظاهر بالحب والتضحية وأنها على استعداد لإضاءة أصابعها العشر من أجل طرد الظلام من حياتك .. وبمجرد أن توقع بك وراء أسوار سجنها

الذهبى .. فإن طبيعتها تبدو على حقيقتها فالطبع يغلب التطبع ..
ـــ وماذا عرفت عن طبيعتها الحقيقية ؟!
ـــ لم أعرف سوى الأنانية والنرجسية والغرور .. فهى تعيش داخل دائرة ذاتها الضيقة وتستمتع بعدم الخروج منها .. فإذا كانت سعيدة فليذهب الآخرون إلى الجحيم !! وإذا كانت مكتئبة فليبك الكون احتراماً لكآبتها ..
ـــ ألم تكن نشوى تدرك أن هذا السلوك كفيل بتدمير حياتها ؟!
ـــ لقد أعماها الغرور بحيث ظنت أن كل الرجال يتمنون منها مجرد نظرة عابرة .. وعلى شريك حياتها أن يطير من فرط السعادة .. فهو من بين كل رجال العالم استحوذ على هذا الكنز الذهبى .. وعليه أن يحافظ عليه بيديه وأسنانه مهما حدث ..
ـــ وكيف وصلت بكما الأمور إلى حد الطلاق ؟!
ـــ عندما تأكدت أن حياتها امتلأت بذاتها ولم يعد فيها فراغ لى ، فأنا لست على استعداد أن أعيش على هامش أية امرأة .. حتى لو كانت كليوباترة شخصيا ..
عاد محسن إلى روحه المرحة فابتسم وبادله طارق الابتسام ، لكنه بدأ فى رؤية نشوى فى ضوء جديد ، صحيح أنه ضوء مشوش خافت لكنه جديد . استأنف محسن حديثه الجاد :
ـــ إن كل ما يهمنى من هذا الحديث هو شريفة وليست نشوى ..
ـــ قلت لك إن ثقتها فىَّ مطلقة ؟!
ـــ لا تعتمد على هذا .. ولا تنس نوبات الاكتئاب التى كانت تصيبها قبل سفرها .. إنها لم تعالج منها بعد .. ويمكن لإشاعات مثل هذه أن تعيد إليها النوبات بحدة أشد ..
ـــ لقد عادت شريفة إلى طبيعتها بعد عودتها من باريس .. وهى الآن

مشغولة باستضافة أختها وأسرتها ..

ــ لكنها مجرد ظروف مؤقتة .. وكان الدكتور عبد الهادى قد سألنى عن شريفة منذ يومين .. فقلت له إنها على ما يرام .. فأعرب عن ترحيبه بها فى أى وقت .. لأن العلاج قد يحتاج لبعض التوجيه والإرشاد .. كما قد يطول لبعض الوقت ..

ــ الدكتور عبد الهادى شخصية عظيمة جدا .. وسأطلب من شريفة زيارته بمجرد سفر ضيوفها ..

نهض محسن وعاد إلى مكانه خلف مكتبه . أعاد إشعال غليونه وقال لطارق وسط سحابات الدخان المعطر :

ــ هل لى أن أدعوك لتناول الغداء معى فى النادى الآن ..

تذكر طارق أنه مرتبط بميعاد مع نشوى فاعتذر عن الدعوة متعللا بارتباطه بالعمل فى المكتب ..

غادر طارق مبنى المستشفى عائدا فى عربته إلى نشوى ، لكن شيئا ما داخله أضاع طعم النشوة المعتادة .

سافرت أمل وأسرتها إلى مقر عمل زوجها الجديد فى بيروو فجأة وجدت شريفة نفسها محاطة بفراغ نسيت مذاقه المتميع منذ أن سافرت مع طفليها إلى باريس . لكن أمها لم تتركها عندما وجدتها وحيدة فى بيتها : زوجها فى عمله بصفة شبه دائمة ، وطفلاها فى النادى بصفة دائمة . كانت مدام عنايات واثقة هذه المرة مما تقوله بعد أن سمعته على ألسنة صديقاتها فى النادى .

ألقت الأم جريدة الصباح جانبا بعد أن تصفحتها ثم قالت لابنتها التى كانت تتناول كوبا من الشاى وقطعة من الخبز المقدد حفاظا على قوامها :

ــ هيا بنا نقض اليوم فى النادى ..

كانت شريفة تجلس مع أمها فى الشرفة المطلة على سور النادى . قالت لأمها :

ــ إن النادى كله أمامنا ..

ــ لم أقصد النادى .. وإنما قصدت ما يجرى فى النادى !!

تساءلت شريفة فى لا مبالاة :

ــ وماذا يجرى فى النادى ؟!

ــ إلى متى ستظلين مغمضة العينين ؟!

ــ ماذا تقصدين ؟!

ــ كانت تخميناتى كلها صحيحة .. لم يصبح الأمر مجرد بقايا عطر فى السيارة .. وإنما أصبح موضوعا على كل لسان ..

ــ أنت هكذا يا ماما .. دائما مغرمة بمثل هذه الأقاويل !!

ـــ من يسمعك يقل إنك مشغولة مشغوليات جسيمة لدرجة أنك لا تملكين الوقت لبحث موضوع مثل هذا يرتبط بمصير حياتك !! إننى لم أر زوجة فى العالم مثلك !!

قالت شريفة وقد توقفت عن ارتشاف الشاى :

ـــ وماذا تريدين منى أن أفعل ؟!

ـــ المفروض فى موضوع مثل هذا لا تسأل زوجة فى العالم كله ماذا تفعل ؟!

ـــ سأسأل زوجى عن حقيقة ما يقال .. فلم يتعود طارق الكذب ..

ـــ إن أصدق زوج فى العالم لا بد أن يلجأ إلى الكذب إذا أحب امرأة غير زوجته ..

وضعت شريفة يدها على خدها فى ملل واضح :

ـــ وقررت أيضا يا ماما أن زوجى قد وقع فى غرام نشوى ؟!

ردت الأم وقد سيطر الاستفزاز على لهجتها :

ـــ لا أعرف من أين أتيت بهذه الثقة ؟! لكن فليكن فى علمك أن الفرق شاسع بين الثقة وبين السذاجة والغباء ..

ـــ سامحك الله يا ماما .. كنت دائما منحازة ضد طارق لرفضى الزواج من ابن أختك .. والآن بدأت فى إهانتى واتهامى بالغباء ..

ـــ لا تؤاخذينى يا شيرى .. أنت لا تعرفين قلب الأم !!

ـــ تتكلمين كما لو لم أكن أما !!

ـــ لم تتعبى فى تربية أطفالك مثلى .. فقد رحل المرحوم أبوك وأنتم أطفال .. ورفضت الزواج برغم جمالى وصغر سنى كى أتفرغ لتربيتكم ..

سألتها شريفة فى سخرية مريرة :

ـــ وهل تريدين أن أمر بنفس التجربة كى أعرف قيمة أولادى ؟!

تداركت الأم هفوة لسانها فقالت بسرعة متأسفة :

ــ لم أقصد يا حبيبتى .. متع الله زوجك بطول العمر .. فكل كلامى أساسه الحرص على زوجك وعلى مستقبلك معه ..

ــ لا تقلقى يا ماما .. سأفحص الأمر وسأثبت لكم جميعا سوء ظنونكم ..

ــ نرجو من الله أن يخيب ظنوننا جميعا !!

ضحكت الأم محاولة التخفيف من كآبة الموضوع ، لكن شريفة لم تشاركها الضحك أو حتى الابتسام . فى حين توقفت عربة طارق أمام باب الفيللا .. فنهضت الأم عندما رأته يخرج منها ويتوجه إلى الداخل ، قالت وهى تهم بمغادرة الشرفة :

ــ إنه طارق !! لا أعرف لماذا جاء فى وقت مثل هذا ؟! باى باى الآن .. سأتصل بك تليفونيا ..

وقبل أن ترد شريفة كانت الأم قد اختفت فى الداخل وسارت خلفها ابنتها . حيت الأم زوج ابنتها الذى أدهشته عجلتها . وقبل أن يفتح فمه بكلمة أخرى غير التحية كانت قد اختفت . سأل طارق زوجته :

ــ لماذا كل هذه العجلة ؟!

لم تجب شريفة بل سألته وهو يهرع إلى غرفة مكتبه :

ــ خيراً .. ما الذى أتى بك فى مثل هذا الوقت ؟!

ــ نسيت مستنداً هاما للشركة .. أظن أنه فى خزانة غرفة المكتب ..

فتح الخزانة والقلق ينهشه وهو يفحص أوراق الخزانة ورقة ورقة وشريفة ترقبه وتتابع قدر إمكانها الأوراق معه حتى وجد الورقة المطلوبة فتنفس الصعداء . وضعها فى حقيبته وأغلق الخزانة وهم بمغادرة الغرفة لكن شريفة استوقفته قائلة :

ــ أريدك فى موضوع مهم ؟!

ابتسم طارق محاولا التخلص منها بعد أن اعترضت طريقه قائلا :
ـــ ليس أهم من المستند الذى لا بد أن أسلمه إلى عميل فى انتظارى الآن فى مكتبى بالشركة ..
ـــ فعلا .. موضوعى أهم من أى مستند .. مهما كانت خطورته !!
سرى القلق مرة أخرى سريان الدم فى عروقه وسألها بعد أن تعجب للجدية التى صبغت لهجتها والتى لم يلحظها من قبل :
ـــ خيراً ..
ـــ فلنجلس لأن الموضوع قد يستغرق بعض الوقت ..
تضاعف قلقه وتعجبه :
ـــ لا تنسى العميل الذى فى انتظارى !!
ـــ لن آخذ منك أكثر من ربع ساعة !!
جلس طارق مستسلما على أقرب مقعد وفى مواجهته شريفة التى ألقت بسؤالها كالقنبلة فى وجهه :
ـــ هل صحيح الكلام الذى يقال عنك أنت ونشوى ؟!
صعق طارق للسؤال الذى ألقته عليه شريفة كالقنبلة وكأنها تسأله عن حالة الطقس اليوم . لكنه تماسك وقال دون تفكير تقريبا :
ـــ كلها إشاعات كاذبة من ألسنة السوء !!
ـــ إذاً .. فأنت تعلم بالموضوع ؟!
تلعثم وتردد ولكنه استمر فى الكلام :
ـــ أخبرنى الدكتور محسن بها ..
ـــ ولماذا لم تخبرنى بدورك ؟!
ـــ لم أرد أن أعكر صفو حياتك لمجرد إشاعات كاذبة !! فأنا أعرف ثقتك البالغة بى .. وقد تعود عليك نوبات الاكتئاب إذا ضايقتك بمثل هذه السخافات .. هل هذا هو الموضوع الخطير الذى أثار قلقك ؟!

ــ الموضوع الخطير هو أننى أريدك أن تقسم بحياتى أن هذه الإشاعات ليس لها أساس من الصحة !!

ــ وهل تشكين فى كذب هذا الهراء ؟!

ــ إذاً .. فسيكون القسم تحصيل حاصل !!

إن شريفة غالية عنده . هذه حقيقة لا جدال حولها . كما أنه لا يحب نشوى وإن كان يقدرها تماما . إذاً فقسمه لن يكون كذبا . اقتنع بهذا المنطق فقال :

ــ وحياتك عندى .. ليس بينى وبين نشوى أية علاقة من تلك التى تتكلم عنها ألسنة السوء !!

استراحت شريفة تماما لهذا القسم ، ولكن سرعان ما سمع الاثنان ضجة على السلم الخارجى للفيلا وصوت نحيب خافت . أسرعت شريفة وخلفها طارق فوجدا كريما عند المدخل يحاول إسكات نيرمين التى كانت تنتحب فى حرقة . ارتدى كريم فانلة بيضاء عليها اسم النادى فوق ثوب الاستحمام ، وكان الماء لا يزال يتساقط من شعره مما يدل على أنه خرج مضطرا متعجلا من حوض السباحة . أما نيرمين فكانت ترتدى فستانا من الجينز الأبيض رسمت على صدره عجلة قيادة لسفينة ، وكانت عيناها الواسعتان الزرقاوان قد امتزجت فيهما الدموع بحمرة خفيفة . احتضنت شريفة ابنتها وهى تسأل ابنها :

ــ ماذا حدث يا كريم ؟!

أجاب الطفل وقد بدت الحيرة واضحة فى ألفاظه اللاهثة :

ــ أبداً .. كنت فى حوض السباحة أنفذ تعليمات المدرب فى حين جاءت شيرين صديقة نيرمين وقالت لى إنها تبكى بكاء شديداً . ولم تقل السبب !! خرجت مسرعاً بعد أن استأذنت المدرب وذهبت إليها وسألتها عن السبب فلم تجب واستمرت فى البكاء . فاضطررت إلى العودة بها إلى المنزل . وأنا مضطر الآن إلى العودة لأن المدرب والفريق فى انتظارى ..

خرج كريم كأنه انتهى من تسليم عهدته . نهضت شريفة ممسكة بيد ابنتها فأسرعت نيرمين بإمساك يد أبيها أيضا لكنها لم تتوقف عن البكاء . دخل الثلاثة قاعة المدخل وجلسوا بعد أن أجلس طارق نيرمين على ساقيه . سألها وهو ينظر إلى ساعته قلقا :

ــ هل ضايقك أو ضربك أحد من أولاد النادى ؟

هزت نيرمين رأسها بالنفى وهى تشدد من احتضانها لأبيها . سألتها أمها فى لهفة بعد أن خفت نحيبها :

ــ هل تشعرين بأى ألم فى أى جزء من جسمك ؟!

جس طارق جبهتها وقال وهو ينظر إلى ساعته فى قلق متزايد :

ــ إن جسمها بارد وليست هناك أية شبهة فى ارتفاع للحرارة ..

استمرت نيرمين فى بكائها الخافت لدرجة استفزت شريفة التى كادت أن تصرخ فيها لدرجة أفزعتها :

ــ لا بد أن يكون هناك ما أبكاك .. تكلمى ؟!

علا نحيب نيرمين مرة أخرى فقال طارق لشريفة :

ــ لا داعى لأن تصرخى فيها هكذا .. فلنتركها تستريح وبعد ذلك ستقص علينا كل شىء عن السبب فى بكائها .

أنزل طارق نيرمين من على ساقيه بعد أن تخلص برقة من أحضانها ، فوقفت حائرة باكية بين أبيها وأمها . فتلقفتها أمها وأخذتها فى حضنها ، فى حين نظر طارق إلى ساعته وقال :

ــ سأذهب لصرف العميل والعودة بسرعة ..

لم ينتظر رد شريفة بل اختفى فى لمح البصر وسرعان ما سمعت محرك عربته وانطلاقها . ظلت تربت على ظهر ابنتها سائلة إياها عن السبب فى بكائها . سكتت الطفلة أخيرا . سألتها أمها مرة أخرى لكنها لم ترد . كانت قد نامت فى حضن أمها ..

وإذ بشريفة تشعر بموجات من الاكتئاب تكاد تغرقها ، حاولت مقاومتها لكنها لم تفلح . لم تجد شيئا تفعله سوى أن تحتضن صغيرتها بعنف ، كغريق يتعلق بقشة .

لاحظ طارق عودة شريفة إلى الشرود والانزواء والعزلة ، بل فقدت فى هذه المرة شهيتها للأكل . وعندما فاتحها فى موضوع التردد على الدكتور عبد الهادى تذكرت كلماته عندما زارته فى عيادته حين أكد لها أن العلاج بين يديها هى أساسا . وسألت نفسها : ما فائدة التردد عليه وزوجها قد انصرف عنها سواء بسبب نشوى أو لأى سبب آخر ؟! كما أنها لاحظت نيرمين فى الفترة الأخيرة وقد فقدت مرحها ، بل ضبطتها باكية أكثر من مرة ، وكادت تقبل قدمها لتحكى لها السر فى هذا البكاء ، لكن الصغيرة — ابنة السابعة — أصرت على الكتمان الذى كاد أن ينتقل بأمها من مرحلة الاكتئاب إلى مرحلة الجنون أو الانتحار . لقد أصبح من العبث أن تذهب إلى الدكتور عبد الهادى وهى لم تعرف سر طفلتها ، ناهيك عن الانشغال الدائم أو المفتعل لزوجها الذى اكتشفت أنه لم يكن مشغولا فى حياته مثلما هو الآن . وتذكرت كلام أمها الذى زاد من ضياعها وحيرتها فلم تعد تدرى ماذا تفعل ؟ أما خوفها من نوبات الاكتئاب فقد ملأ الفراغ بين النوبات نفسها . وكان الدكتور عبد الهادى قد وصف لها بعض الأقراص التى تساعدها على اجتياز النوبات أو التهدئة منها ، أما الآن فقد فقدت الأقراص مفعولها برغم أنها بلغت الحد الأقصى الذى حدده الدكتور عبد الهادى لتناول الجرعة سواء بالنسبة لعدد المرات أو لعدد الأقراص .

كان طارق قلقا بدوره لكنه شعر أن نشوى تملأ فى حياته فراغا كان من الممكن أن يطفح بالهموم التى تثيرها زوجته وطفلته . وسعد بوجود نشوى

فى حياته لأنه أقنع نفسه أن قلقه على زوجته وحبيبة قلبه نيرمين لن يفيدهما بأية حال من الأحوال ، وليس أفضل من أن يكون الإنسان عمليا وأن يعالج الأمور ـــ حتى العاطفية منها ـــ بأسلوب واقعى .

استراح طارق لهذا التبرير حتى يخمد داخله أنفاس أية بوادر للإحساس بالذنب ، وحتى يفسح لنفسه فرصة إشباع حب استطلاعه فيما يتصل بنشوى بعد أن أراه محسن جانبا واحدا لشخصيتها . كان يتحرق شوقا لمعرفة الجانب الآخر من نشوى نفسها . ولذلك قال لها ذات مرة عند الانتهاء من العمل :

ـــ أريد أن أحدثك يا نشوى فى موضوع حاولت إرجاءه عدة مرات ، لكن يبدو أنه من الصعب تجاهله أكثر من هذا ..

ومضت عينا نشوى واتسعتا ثم قالت مبتسمة :

ـــ وأنا تحت أمرك يا طارق .. فلنذهب إلى النادى ..

ـــ للأسف . النادى لا يصلح مكانا لمناقشة هذا الموضوع ..

اشتعل حب الاستطلاع داخلها ظنا منها أن القطوف أصبحت دانية أخيرا . تساءلت :

ـــ هل لى أن أعرف هذا الموضوع الآن حتى أفكر فى مكان مناسب ؟

ـــ أريد أن تعدينى بأنه سيبقى سرًّا بيننا !

اتسعت حدقتا نشوى وبدا فى زرقة عينيها عمق المحيط الهادر :

ـــ وهل سيبقى سرًّا إلى الأبد ؟!

ـــ ليس هناك شىء فى حياتنا اسمه « إلى الأبد » سوى أرواحنا !

لم تعجب نشوى مراوغة طارق لكنها وعدته كى تشفى حب استطلاعها . قال :

ـــ حكى لى محسن عما جرى فى حياتكما الزوجية .. طبعا من وجهة

نظره الخاصة .. وكيف بلغت بكما الأمور حد الطلاق ..

أحست نشوى بخطر خفى داهم أضاع آمالها التى أثارها فتح طارق لهذا الموضوع الذى بدأ مشرقا ثم دخل منطقة وعرة لا تعرف كيف ستخرج منها . سألته وقد استعادت قدرتها على التخابث :

ــ وما الذى جعله يفتح مثل هذا الموضوع معك ؟!

ــ كنا نثرثر بصفة عامة حول متاعب الزواج ومشاكله فحكى لى تجربته الفاشلة معك ..

ــ ماذا قال لك ؟!

ــ أرجو إعفائى من هذا السؤال .. فقد قلت لك إنه تكلم من وجهة نظره الخاصة ..

ــ هل يهمك أن تعرف كل شى ء عنى ؟!

ــ طبعا ..

أوحت غريزة الأنثى إلى نشوى بأن تبرز كل أسلحتها استعدادا للمعركة القادمة التى قد تكون فاصلة :

ــ أرى أن خير مكان لمناقشة هذا الموضوع هو شقتى ..

سعد طارق بهذا الاقتراح لكنه لم يترك سعادته تطفو على وجهه . قال متسائلا :

ــ أليس فى هذا حرج لك ؟!

ــ ماما سافرت مع أخى إلى الإسكندرية ولن تعود قبل يوم الجمعة . أما دادا أم سيد فقد سافرت إلى قريتها وستعود غداً ..

إنها الأنثى المتجددة دوما التى لا يخلو صندوقها السحرى من المفاجآت . إنها تدعوه لأول مرة إلى شقتها وتؤكد له الخلوة التى سيطرح فيها الموضوع للبحث . عندما يقع الناس تحت وطأة السحر فإن تساؤلاتهم عن الخير والشر تتراجع إلى الخلف وتقبع فى الظل ،

وكأن معايير البشر الأخلاقية لم تعد تنطبق عليهم . استيقظ من خواطره على تساؤلها :

ــ هل اتصلت بشريفة كى تعتذر لها عن عدم تناول الغداء معها ؟

ــ نعم .. اتصلت .. لأننى كنت أنوى البقاء معك فى المكتب ..

ــ هيا .. فالمكتب مكان لا يصلح لهذا الموضوع .

انطلقت بهما السيارة وقد استسلم طارق لأحاسيس الإثارة التى شوشت داخله صورتى شريفة ونيرمين . وسرعان ما كانا فى الشقة الأنيقة التى تطل على النيل فى منطقة بين كوبرى أبى العلاء وكوبرى امبابة . لم يشأ أن يخرج إلى الشرفة حتى لا يراه أحد فى الشرفات الموازية . كان الدور العاشر الذى تقع فيه الشقة قد أحاطها بالصمت الممزوج بهواء سبتمبر الرقيق .

أغلقت نشوى زجاج الشرفة وأدارت جهاز التكييف . اختفت داخل الشقة وظل طارق يرقب الصنادل العابرة فى النيل دون أن يسمع صوتها وكأنه يشاهد فيلما صامتا . أحس أن ثمة مؤامرة ينسجها الصمت والارتفاع والتكييف ، لكنها ــ على أية حال ــ مؤامرة مثيرة يمكن أن تذيب كل همومه ولو مؤقتا .

عادت نشوى تدفع أمامها عربة صغيرة محملة بأطباق السمك والجمبرى والكافيار ، وفى الدور الأسفل من العربة قبعت زجاجة من النبيذ الأبيض . لا يعرف لماذا تذكر طارق شريفة عند عودتها من باريس ، حين ظهرت فى المطار وهى تدفع عربة الحقائب وعلى يمينها كريم وعلى يسارها نيرمين . جلست نشوى أمام العربة فى مواجهة طارق وسألته ضاحكة :

ــ من أخذ عقلك ؟!

ضحك طارق متأملا الأطعمة التى أحضرتها على العربة فقالت له متسائلة :

ــ بماذا يذكرك هذا الطعام ؟!

ــ أنت مغرمة بالذكريات السعيدة ؟!

ــ وخاصة السكندرية منها! إننى أعيش عليها ؟!

ملأت له كأسا من النبيذ الأبيض وشربت نخبه كما شرب نخبها . تناولت نشوى شريحة صغيرة من السمك وقالت له بابتسامة غريبة :

ــ يبدو أننا نسينا الموضوع الذى جئنا من أجله .. أنت محق فى هذا .. فمعك أنسى الدنيا كلها ..

وضع طارق كأس النبيذ بعد رشفة منه وقال محاولا تفادى المناطق الوعرة التى تحاول نشوى أن تجره إليها :

ــ هيه .. ماذا قلت عن محسن ؟!

ــ سأحكى لك الموضوع منذ البداية وبكل صراحة كعادتى معك .. فأنا لم أسع إلى الزواج من محسن .. ذلك أننى كنت متزوجة بالفعل .. لكنه ظل يحيطنى بمناوراته وإغراءاته .. واستغل صغر سنى وطيشى واستخدم معسول الكلام حتى تصورت أننى لو رفضت الارتباط به فسوف ينهى حياته بطريقة أو بأخرى .. وشعرت أننى ملكته المتوجة التى سيظل العمر كله يتعبد فى بلاطها . وبالفعل طلقت من زوجى الأول وتزوجت منه . وعشت معه فى السنوات الأولى حلما لا يقل فى روعته عن حلمنا السكندرى . لكن سرعان ما استيقظت على الحقيقة المروعة التى تؤكد لى أننى مجرد مخلوقة تعيش على هامش حياته بعد أن كنت ملكته المتوجة ومحور حياته كلها ..

ــ كيف ؟!

ــ بدأ يتغيب فى المستشفى طوال النهار وأحيانا يبيت بها .. وكأننى غير موجودة فى حياته ..

تذكر طارق أسلوب معاملته الحالى لشريفة لكنه سرعان ما قال لها :

ــ ربما كانت ظروف عمله تحتم عليه هذا !!

ــ ظروف عمله على عينى ورأسى .. لكن أن يحب سميرة ..

قاطعها :

ــ من هى سميرة ؟!

ــ ممرضة جميلة مثيرة اختارها من بين الممرضات كى تقف إلى جانبه فى كل العمليات .. وتشرف على مكتبه وعيادته ..

تذكر طارق الممرضة الجميلة التى قادته إلى مكتب محسن .. كما تذكر أن التهمة التى وجهتها نشوى إلى محسن وسميرة هذه هى نفسها الموجهة الآن إليه هو ونشوى . لكنه قال لها :

ــ ربما كانت مجرد إشاعة .. إن بعض الظن إثم ..

ــ إننى عندما أضبطه متلبسا وهو يحلم بها فلا بد أن الأمر لا يمكن أن يكون مجرد إشاعة ..

ابتسم طارق وتناول قطعة من الجمبرى بعد أن كان توقف عن الطعام طيلة سردها لحكايتها ثم سألها :

ــ هل كنت تشاركينه الحلم ؟!

لم تشاركه نشوى الابتسام وقالت بجدية :

ــ ضبطته ينطق باسمها وهو نائم !!

ــ ربما كان يحلم بإحدى عمليات العظام التى يقوم بها والتى تساعده فيها ؟!

ــ كان ما انكسر من الصعب إصلاحه ؟! لم يكن ساقا أو ذراعا وإنما حياة !

صمتت لحظة ثم استطردت :
ــ هل عرفت الحقيقة الآن ؟!
ابتسم طارق ابتسامة فيها مزيج من السخرية والمرارة وقال :
ــ يبدو أن الإنسان قد جاء إلى هذه الحياة كى لا يعرف الحقيقة .
سألته فى حسم وأسف :
ــ ألا تصدقنى ؟!
ــ أصدقك بالطبع .. فكل إنسان يرى الأمور من وجهة نظره الخاصة .. ولذلك تتعدد الحقائق بتعدد البشر ..

توقف طارق عن تناول الطعام تماما . حاولت نشوى دفعه إلى تناول المزيد لكنه شكرها . نهضت ودفعت العربة خارجا وعادت لتسأله إذا كان يحب القهوة فقال لها إنه سيرحل فى دقائق ولا داعى لإجهادها طالما أن أم سيد غائبة . لم تسترح نشوى لذكر كلمة « الرحيل » فجلست على حشية جلدية عند قدميه . رفعت رأسها مركزة عينيها على عينيه وإذ بالدموع تترقرق فيهما وتنحدر على وجنتيها مما أثار دهشة طارق الذى أخرج منديله الأبيض الحريرى من جيبه بحركة لا إرادية ومسح الدموع لكنها سرعان ما قبضت على يده فسألها وقد زادت دهشته:
ــ لماذا تبكين ؟! لم أرك تبكين من قبل ؟!
ــ أشعر أنك لا تصدقنى ؟!
ــ أصدقك بالطبع ..

أمسكت يده ونقلتها من وجنتها ثم قربتها من فمها وقبلتها . سحبها برفق لكن جحافل النمل شنت هجوما كاسحا من أطرافه الباردة صوب منطقة القلب الذى عزف أنغاما متضاربة ، وطن فى أذنيه هدير أمواج البحر على شاطىء المعمورة ، ونفذت إلى أنفه رائحة غاز نفاذة ،

وغشت عينيه سحابة من الدخان الأبيض ، ورأى شفتيها ترتعشان . ونسى طارق تماما أن نشوى تحاول أن تفعل معه ما استنكرت هى فعله مع محسن عندما أغراها بترك زوجها الأول ثم تزوجها .

تأكدت نشوى من مفعول القبلة فقررت تصعيد الزحف . ألصقت صدرها بركبته فسرت فيها طراوة نهدها ، ولم يعرف إذا كانت الدماء قد تدفقت إلى رأسه أو هربت من خلايا مخه هذه المرأة الساحرة كأنها تملك خاتم سليمان فتنقل الإنسان من حال إلى حال فى لمح البصر ، بل إنها تنقله من كوكب إلى آخر وكأن الكون كله قد استحال إلى غرفة فى الدور العاشر تطل على النيل وتسبح فى صمت الكون الرهيب .

أغمضت نشوى عينيها وأسندت رأسها الذهبى على ركبته ممسكة بساقه . لم يدر طارق ماذا يفعل ؟! تحول المقعد تحته إلى قارب صغير تتقاذفه الأمواج صعودا وهبوطا ، وقد تحطمت دفته ومجاديفه . كانت نشوى وهى ممسكة بساقه ، كأنها تشده معها إلى القاع . تدفقت المياه فى أذنيه فترك مقعده وركع على السجادة فى مواجهتها وأخذ رأسها بين يديه وانهال على شفتيها بقبلات لم يذق طعمها ولا فى أحلام المراهقة القديمة .

تركت نشوى الحشية الجلدية وهبطت على السجادة تاركة نفسها بين أحضانه يفعل ما تراءى له . مسح وجهها بشفتيه مثل تائه فى الصحراء وجد كوبا من الماء المثلج . فقد هطلت الأمطار أخيراً على أرضه التى أصابها الجفاف بالشقوق عندما استدارت واحتضنته بذراعيها وانهالت بدورها على وجهه بوابل من القبلات التى تردد صداها فى الغرفة الصامتة وكأن الجدران اهتزت لرعشة القلبين .

دفعت نشوى الحشية الجلدية بقدمها بعيدا واسترخت تماما فوق السجادة الفاخرة فى حين استكان رأسها فى حجره . امتدت يده كأنها

تحت تأثير قوة مغناطيسية هائلة وبدأت فى فك أزرار بلوزتها الصفراء الخفيفة ، ثم طالت ذراعه لتفك مشبك السوتيان المصنوع من الدانتللا عند ظهرها فسقط ، وعندما برز النهدان نافرين ساخنين ، نهضت نشوى كمن لدغها عقرب وهى تلملم بلوزتها فاستيقظ طارق لكن دواراً شديداً أصاب رأسه . قالت :

ــ لن أسمح لنفسى بارتكاب غلطة أندم عليها العمر كله !!

ــ إن كل مشاعرى تجاهك إخلاص وحب حتى العبادة !!

قالت فى هدوء مثير مثل ذلك الذى يعقب العاصفة :

ــ كما قلت لك يا طارق .. فأنا لا أستطيع أن أقوم بدور العشيقة أو حتى الزوجة الثانية مهما كان حبى لك ..

رد عليها وقد استسخف جلسته فوق السجادة :

ــ وأنا كما قلت لك من قبل .. على استعداد أن أثبت لك حبى عمليا بالزواج منك ..

ــ وشريفة ؟!

جاء اسم زوجته إلى أذنيه مثل صدى قادم من أعماق سحيقة ، لكنه قال :

ــ لم تعد هناك حياة زوجية بيننا بمعنى الكلمة .. وأفضل لكل منا أن يجرب حظه مع شريك آخر !!

ــ أرجوك فكر جيدا قبل أن تقدم على خطوة خطيرة مثل هذه .. فأنا أحب شريفة مثل أختى تماما ..

ــ المشكلة ليست فيك .. بل بينى وبين شريفة .. وقد بدأت قبل أن أرتبط بك ..

ــ قصدك قبل أن تحبنى ؟!

ــ فعلا ..

ـــ إذاً .. فلن أعانى من الإحساس بالذنب ؟!
نهضت نشوى واقفة وتبعها طارق . قالت وكأنها تنهى الزيارة :
ـــ شكرا يا طارق على هذه الزيارة الرائعة .. كانت لحظات أخرى رائعة من عمرى ..
أحكم طارق إغلاق جاكتته ، وربت على رباط عنقه مراعيا هندامه ومد يده مصافحا نشوى قائلا :
ـــ سأراك غداً ..
ـــ مع السلامة .. يا حبيبى ..
خرج طارق موصدا الباب خلفه فى حين نظرت نشوى فى المرآة المجاورة للباب وابتسمت عندما رأت بلوزتها المفتوحة ونهدها الأيمن المطل منها ، فى حين تناثرت طبعات أحمر الشفاه على وجهها فى درجات لونية متفاوتة .

تأكدت شريفة من علاقة طارق بنشوى . فلم تختلف صديقة من صديقاتها حول هذه الحقيقة الجديدة . لكن خوفها على نيرمين كان أشد وقعا من غياب زوجا شبه الدائم عن البيت . فقد تزايدت نوبات بكاء الطفلة وعزلتها وكآبتها لدرجة أنها فكرت فى اصطحابها معها إلى الدكتور عبد الهادى . فلم تبح لأمها عن السر فى هذا التطور الغريب الذى طرأ عليها فجأة ودون مقدمات منذ ذلك اليوم المشئوم الذى عادت فيه باكية من النادى مع كريم . فقد رفضت الذهاب إلى النادى بعد أن كانت تطير إليه كالفراشة . وأصبحت صورة مصغرة من أمها فى التزام البيت الذى لم تتركه إلا عند عودة الدراسة .

لقد فعل طارق شيئا يعد فى نظر شريفة أسوأ من خيانته لها مع نشوى . فهو لم يكذب عليها طيلة حياته معها ، وكانت تفضل أن يجاهرها بعلاقته بنشوى من أن يكذب . ولو كانت فى صحتها النفسية المكتملة لكان هذا الكذب بمثابة كارثة تقيم لها الدنيا وتقعدها . لكن نوبات الاكتئاب التى اشتدت فى الفترة الأخيرة جعلتها تستسلم لحالة من الرضوخ اليائس الذى أفقدها القدرة على أى نوع من المبادرة ، لدرجة أن أمها فسرتها على أنها زوجة باردة لا تحس ، ولم تحتمل رؤيتها على هذا الوضع الذى استفزها لدرجة جعلتها تقاطعها مما زاد من عزلتها واكتئابها . أما طارق فقد استسلم تماما لنشوى التى جعلته يشعر أنها سعادته وأمله ومستقبله . كانت تفتح شهيته للحياة ثم تتركها مفتوحة على مصراعيها دون أن تشبعها .

راقبت شريفة ما يدور وكأنها سجين ينتظر إتمام إجراءات إعدامه . حتى القلق خفت عندها تحت طبقات الموات المتراكمة ، ولم يتبق لديها سوى خوف ممض من حالة نيرمين التى أصبحت تسأل كثيرا عن سبب غياب أبيها المتواصل عن البيت لدرجة أنها لم تعد تراه سوى للحظات عابرة قبل ذهابها إلى المدرسة فى الأيام التى يستيقظ فيها مبكراً . وكانت شريفة تعلل لها غيابه بكثرة مشغولياته لكن الظاهرة الوحيدة التى أدهشت شريفة ودفعت عقلها إلى بعض التفكير أن الطفلة لم يبد عليها الاقتناع بإجابات أمها وتبريراتها وإن كانت قد حاولت التظاهر الطفولى به .

أما نشوى فراقبت طارقاً مراقبة القط الذى يتربص بالفأر دون أن يهجم عليه مباشرة لثقته الأكيدة من سقوطه الآتى بين مخالبه وأنيابه . كانت مصيدة الرغبة وشهوة الحياة مفتوحة على مصراعيها فى انتظار الصيد الثمين الذى حاول أن يفاتح شريفة أكثر من مرة فى هذا الموضوع الذى لم يدرك أنه مرعب لهذه الدرجة إلا عندما فكر فيه جديا . كان الاكتئاب قد أحاطها بسور عظيم حجزها عنه تماما . حاول مرة أن يقفز فوق السور ونصحها بضرورة الذهاب إلى الدكتور عبد الهادى ، لكنها صارحته لأول مرة أن الدكتور عبد الهادى سيحاول تثبيت إرادة الحياة داخلها ، لكن الإرادة الوحيدة المتبقية داخلها هى رفض الحياة . قال لها :

ــ إن هذا انتحار بطىء ؟!

ــ لا تعبأ بى . فلديك من يسعدك !!

ــ قلت لك أكثر من مرة إن هذه إشاعات كاذبة تطلقها ألسنة السوء !!

ـــ لا داعى للاستهانة بعقلى أكثر من هذا .. كفاك الاستهانة بكرامتى وكبريائى !!

حاول أن يجس نبضها فقال :

ـــ وما الذى يجبرك على العيش مع إنسان يستهين بعقلك وكرامتك وكبريائك ؟!

توقع أن تهب عاصفة عاتية لكنها قالت فى استسلام قاتل :

ـــ أصبحت كل الأشياء تستوى فى نظرى .. الزواج كالطلاق .. الحب كالكره .. الحياة كالموت ..

ارتفع السور العظيم بينه وبينها فلم يعد يراها . ترك البيت هاربا إلى نشوى التى بدأت تشك فى قدرته على اتخاذ قرار الطلاق ، لكنها لم تشك فى قدرتها على الاحتفاظ به تحت سطوتها ، بعد أن أدمنها وعجز عن الإقلاع عنها .

ترك طارق شريفة فى طريقها إلى القاع الذى بدأت ملامحه تتضح لها بكل رعبه الذى لم يحرك فيها شعرة واحدة . وبدلا من أن تشحذ المتاعب التى برزت مجددا من عزيمتها ، كانت تسرع بها نحو القاع . ففى أوائل نوفمبر عادت نيرمين من المدرسة ومعها أول تقرير عن تقديراتها ودرجاتها لشهر أكتوبر ، وإذ بكل درجاتها قد هبطت إلى المستوى المتوسط والمقبول بعد أن كان ترتيبها الأولى فى الامتحان النهائى فى العام الماضى . وعندما وقعت عينا شريفة على ترتيب ابنتها المتأخر انتابتها أزمة اكتئاب حادة ولم تدر ماذا تقول أو تفعل ؟! وظلت تحملق فى ابنتها الواقفة أمامها بزيها المدرسى فى انتظار ما تقوله أمها ، لكنها لم تقل شيئا . عندئذ أخرجت من حقيبتها خطابا سلمته لها مدرسة الفصل لتوصيله إلى أمها . فتحته شريفة وقرأت بصوت خافت مهزوز وبعينين زائغتين على سطور متراقصة متماوجة وبيدين مرتعشتين

متشنجتين كانتا على وشك تمزيق الخطاب شدًّا :

« السيد الفاضل ولى أمر الطالبة نيرمين طارق ..

بعد التحية ..

برجاء الحضور إلى المدرسة فى خلال أوقات الدراسة لمقابلتنا لأمر يهم ابنتكم ..

وتقبلوا بقبول فائق التحية والاحترام ؟

مدرسة الفصل

نادية فهيم »

أعادت شريفة قراءة الخطاب عدة مرات لعلها تستشف شيئا من بين السطور ، لكن الخطاب كان من الإيجاز المرعب بحيث جعل القلق العارم يحل داخل شريفة محل الاكتئاب المتزايد . سألت نيرمين عن معنى الخطاب وعما إذا كان هناك شىء غير طبيعى قد حدث ، لكنها أجابت بالنفى وانطلقت شبه باكية إلى غرفتها وأوصدت بابها خلفها . نهضت شريفة مسرعة واتصلت تليفونيا بناظرة المدرسة ، فرد عليها ساعى حجرتها وأخبرها أنها غادرت المدرسة ومعها معظم المدرسات ولم يتبق فى المدرسة سوى عمال النظافة ..

فكرت شريفة فى عرض الخطاب على طارق حتى يذهب إلى المدرسة لبحث الموضوع ، لكنها لم تعد تثق فيه ، وهذا شىء طبيعى للغاية وخاصة أنها فقدت الثقة فى نفسها ..

لم تنم ليلتها ، وفى الصباح بعد ذهاب ابنتها إلى المدرسة ارتدت ملابسها بسرعة ، ولم تعبأ بزينتها برغم الهالات السوداء المحيطة بعينيها ، والهزال البادى عليها ، والصفرة السارية فى بشرتها ، ركبت عربتها وهى تدخن سيجارة بعصبية بعد أن لجأت أخيرا إلى التدخين فى

محاولة لنفث الاكتئاب مع الدخان . لكنها أدمنت التدخين ولم تقلع عن الاكتئاب .

قادت العربة تكاد لا تسمع ضجيج العربات حولها ، لكنها لم تجهد كثيرا فقد كانت مدرسة نيرمين فى الزمالك ، وبمجرد أن عبرت شريفة شارع الزمالك الرئيسى كانت تقف أمام المدرسة . حيت البواب وسارت إلى غرفة الناظرة التى رحبت بها فأخرجت شريفة الخطاب وفتحته لها وهى تقول :

ـــ لن أضيع وقت سيادتك .. فقد جئت لهذا الخطاب ؟!

تصفحت الناظرة الخطاب فى لحظات ثم ضغطت على زر جرس معلق فى مقعدها فدخل الساعى مسرعا فأمرته بإحضار مسز نادية فهيم . وفى دقائق عادت مسز نادية مرحبة بشريفة . جلست قبالتها وقالت :

ـــ لا يحزننى يا مدام شريفة أكثر من تخلف تلميذ كان متقدما .. فبعد أن كانت نيرمين الأولى على صفها كله فى العام الماضى .. تدهورت حالتها لدرجة رأيت فيها ضرورة اللقاء بيننا لنبحث علاج هذه الحالة ..

سألتها شريفة وهى تسترد من داخلها عزما ضائعا :

ـــ ومتى لاحظت حضرتك هذا التدهور ؟!

ـــ منذ بداية العام الدراسى .. لاحظت أن نيرمين فقدت حيويتها .. بل ضبطتها أكثر من مرة وقد غلبها النعاس فى أثناء الحصة .. وكان من الطبيعى أن تفقد قدرتها على التركيز والاستيعاب .

ـــ وهل تمكنت من معرفة السبب ؟!

ـــ حاولت بكل الطرق التربوية .. لكن نيرمين أصرت على عدم وجود سبب محدد تعرفه .. وعندما عجزت عن إصلاح الحالة لجأت إلى ضرورة اللقاء بين المدرسة والبيت .. فهل لاحظت سيادتك عليها ما لاحظته أنا فى المدرسة ؟!

أجابت شريفة وهى تقاوم نوبات الإحباط داخلها :

ـــ لاحظت نفس الأعراض تماما .. لكن الذى لم أعرف سببه أنها بدأت فجأة ذات يوم عادت فيه نيرمين باكية من النادى .. وحاولت بكل الوسائل والطرق أن أعرف السر فى بكائها .. لكنها أصرت على إنكار وجود أى سبب .. لكن الذى لا شك فيه أنها تغيرت تماما من حال إلى حال .. كانت زهرة البيت الضاحكة وفراشته الطائرة ، والآن تسلك سلوك عجوز فقدت القدرة على مواجهة الحياة ..

ـــ شىء محير للغاية .. وهل فكرت فى عرضها على طبيب نفسى ؟!

ـــ فى الحقيقة فكرت .. لكننى خفت الإقدام على هذه الخطوة !!

ـــ لماذا ؟!

ترددت شريفة فى الرد لكنها قالت متلعثمة :

ـــ خفت أن أزيد من اضطراب نيرمين عندما تقابل إنسانا غريبا يناقشها فى أشياء لم تحب أن تفضى بها لأبيها وأمها !!

ـــ اسمحى لى أن أقول إن خوفك ليس فى محله .. فالعلاج النفسى له أساليب متعددة .. وكلما كان مبكراً كان أفضل .. فقد يكون ما حدث لنيرمين فى النادى شيئا خطيرا قد يؤثر على مستقبلها كله ..

كأن مطرقة قد هوت على رأس شريفة التى قالت مستسلمة :

ـــ سأعرضها على طبيب نفسى .. وأرجو ألا يكون الموضوع بالخطورة التى نتصورها ؟!

ـــ لم أقصد هذا .. لكن من الأفضل أن نضع كل الاحتمالات فى اعتبارنا حتى نقلل المفاجآت بقدر الإمكان .. فقد ذهلت عندما رفضت نيرمين الذهاب مع فصلها فى رحلة إلى حديقة الحيوان ومسرح العرائس .

سألتها شريفة فى ذهول :

ـــ كيف حدث هذا ؟! ليس عندى أى علم بهذا الموضوع ؟!

ـــ كنا قد طلبنا اشتراكا رمزيا للرحلة ، أحضره تلاميذ وتلميذات الفصل كلهم باستثناء نيرمين . وعندما سألتها عما إذا كان أبوها أو حضرتك قد رفضت اشتراكها فى الرحلة ففوجئت بأنها لم تخبر أيًّا منكما وأنها ترفض الذهاب فى الرحلة من تلقاء نفسها دون إبداء أى سبب سواء مقنع أو غير مقنع !!

ـــ كلام حضرتك ضاعف من مخاوفى .. إذ كيف لطفلة فى سنها ترفض من تلقاء نفسها الذهاب إلى حديقة الحيوان ومسرح العرائس !!

ـــ ولهذا أرجو التوجه بها بأسرع ما يمكن إلى طبيب نفسى !!

ـــ هل تفضلين حضرتك استدعاءها الآن من الفصل كى نحاول سويا معرفة سبب متاعبها ؟!

ـــ قد يأتى هذا بنتيجة عكسية تماما عندما تجد نفسها محل استجواب مما قد يجعلها تتقوقع على نفسها أكثر ..

نهضت شريفة ومعها كل من الناظرة ومدرسة الفصل شاكرة لهما اهتمامهما بنيرمين ووعدت مدرسة الفصل بتنفيذ نصيحتها ، وودعتهما وخرجت وقد تحول الشارع المزدحم بالعربات إلى غابة من الوحوش النحاسية والحديدية .

- ١٥ -

كانت ليلة باردة من ليالى نوفمبر المبكرة ، أوت نيرمين إلى فراشها فى حوالى العاشرة بعد أن دخلت أمها غرفة النوم ، لكن أباها كان قد تعود العودة فى ساعة متأخرة من الليل . ولم يكن جفن لنيرمين يغمض إلا بعد أن تسمع صوت مفتاح أبيها فى الباب ودخوله للنوم . كان أخوها يغط فى النوم فى فراشه المواجه لفراشها بعد يومه الحافل بالدراسة وتدريبات كرة القدم التى انضم أخيرا إلى فريقها بالمدرسة . وفى معظم الأحيان لم يكن النوم يزور جفون نيرمين حتى بعد عودة أبيها المتأخرة إلى البيت . وكانت تقضى الوقت فى الصلاة الملحة حتى لا يترك أبوها الذى تحبه حب العبادة أمها التى لا تستطيع الحياة بدونها لحظة واحدة . وتظل على هذا الرجاء بدموعها التى كانت تمسحها بمنديلها أولا بأول حتى لا تبتل وسادتها وتعرف أمها أنها تقضى الليل باكية .

فى تلك الليلة شعرت نيرمين بحركة أمها المتزايدة فى غرفة نومها . أطفأت نور الأباجورة وأضاءته عدة مرات . بل إنها خرجت مرتين حتى الحمام وعادت . وكان الجدار المشترك بين الغرفتين أداة توصيل جيدة لإيقاع الأقدام والأصوات العالية . ووسط خواطرها المتضاربة سمعت نيرمين أقدام أمها تتجه نحو غرفتها فتظاهرت بالنوم العميق . حملقت شريفة فى ظلام الغرفة ثم أضاءت النور فرأت كريما يغط فى نومه ، اقتربت من فراش نيرمين فوجدتها وقد أخفت وجهها تحت الغطاء فسحبته برفق . وجدتها تغط هى الأخرى فى نوم عميق لكن جفونها كانت ترتعش ارتعاشة خفيفة فظنتها تحلم . أحكمت الغطاء حولها

وخرجت بعد أن أطفأت النور .

فتحت نيرمين عينيها واستأنفت سهرها . كانت ساعة الحائط الكبيرة فى قاعة المدخل تطيل من مرور الزمن بدقاتها العالية فى هدوء الليل وبرودته . ولم يكن يبارى دقاتها سوى صوت محركات السيارات المارقة فى ظلام الشارع ، وكانت نيرمين تصيخ السمع لعل إحداها تكون سيارة أبيها ، فهى تعرف صوت محركها جيدا . لكن السيارات كانت تمرق ثم يختفى ضجيجها للحظات تأتى بعدها سيارات أخرى . وكان حفيف إطاراتها فوق الطريق يشكل إيقاعا ثابتا مع دوران محركاتها . ويبدو أنها كانت تمطر بحيث أحالت حفيف الإطارات إلى أزيز .

دقت ساعة الحائط الضخمة منتصف الليل ولم يعد طارق . تقلبت نيرمين فى فراشها ، لكنها لم تسترح إلى أى جانب تنام عليه . هل يمكن أن يكون قد وقع له حادث ؟! إنه لم يتعود أن يتأخر لما بعد الثانية عشرة !! وأمها لا زالت تتحرك فى غرفة نومها ، بل إنها سمعتها تفتح نافذة الغرفة التى تطل على الشارع برغم برودة الليل ، ثم عادت فأغلقتها .

وكانت نيرمين قد لاحظت أن أمها زارت مدرستها صباح اليوم ، وعندما عادت إلى البيت سألتها عما إذا كانت زيارتها نتيجة لتخلفها الدراسى ، لكنها راوغت فى الإجابة ودخلت غرفتها لتقضى فيها معظم الوقت حتى حلول الليل وانتصافه ، وعندما رأتها قبل ذهابها للنوم لاحظت احمرار عينيها فتأكدت أن أمها تمضى عزلتها فى البكاء .

دقت الساعة الواحدة صباحا فكادت تقفز من فراشها قلقا ، لكنها سمعت صوت محرك سيارة تدخل الحديقة فى طريقها إلى الجراج خلف الفيللا ، فأدركت أنها سيارة أبيها ، وبدأت النار داخلها تخمد

تدريجا . سمعت المفتاح فى ثقب الباب فاسترخى جسدها المشدود تحت الغطاء الذى لم يمنحها الدفء برغم صوفه الكثيف . توجه إيقاع أقدام أبيها صوب غرفة النوم المضيئة بنور الأباجورة الصغيرة . سمعت صوت أبيها لأمها :

— مساء الخير يا شريفة .. أراك مستيقظة حتى الآن !! خيراً ؟!

قالت له بلهجة زاخرة بالسخرية المريرة المنذرة بالعاصفة والتى لم يعهدها فيها من قبل :

— فى انتظار وصول سيادتك .. أليس من المفروض أن تنتظر الزوجة زوجها حتى لو عاد إلى بيته فجراً ؟!

— ما هذه السخرية المريرة فى كلامك ؟! ولماذا هذه الليلة بالذات ؟!

— هذه الليلة مثل أية ليلة أخرى !! لكن ما يحدث لا يمكن أن تحتمله كرامة أية زوجة حتى لو كانت مصابة بكل الأمراض النفسية ..

— قلت لك إن ما يحدث مجرد إشاعات كاذبة ترددها ألسنة السوء والحقد !!

— وأيضا تعلمت الكذب .. لا أستطيع أن أصدقك ، إنكارك ورائحة العطر العالقة بك تكذب كل كلمة تقولها ..

— هل تصدرين حكمك على مجرد وهم برائحة عطر ؟!

— لقد نصحتنى أمى بالحذر منذ عودتى من باريس .. لكننى ظننت أن تقدمها فى السن جعلها تتخيل أشياء غير موجودة .

— اعترفى أن أمك هى التى دفعتك إلى كراهيتى .. فهى لم تحبنى منذ أن تزوجتك .. كانت تتمنى أن تزوجك لابن أختها !!

— كان من سوء حظى ألا أتزوجه !! على الأقل لم يكن ليسمح لنفسه أن يدوس كرامتى بهذا الشكل ..

ـــ لا يزال فى الوقت متسع .. فهو أعزب حتى الآن .. وأنت يمكنك التخلص منى ببساطة بعد أن تقطعت كل الروابط بيننا ..

ـــ إنك تتحين فرصة التخلص منى .. حتى تنطلق إلى حبيبة القلب ..

وضعت نيرمين الوسادة على أذنيها حتى لا تخترقهما هذه السهام النارية فى قلب الليل ، لكن الوسادة أحالت الأصوات إلى كابوس متصل لم تستطع أن تستيقظ منه فبكت فى حرقة ولكن فى صمت ..

قال طارق ويبدو أنه لا يزال يرتدى ملابسه :

ـــ لقد أردت التخلص ليس منى فحسب بل من الحياة ذاتها أليست هذه كلماتك بالنص عندما ضغطت عليك للذهاب إلى الدكتور عبد الهادى ؟!

ـــ وماذا يستطيع أن يفعل الدكتور عبد الهادى بعد أن أحلت حياتى إلى جحيم متصل ؟!

ـــ من الذى أحال حياة الآخر إلى جحيم ؟! من الذى أصر على اليأس والملل والضجر والإحباط والاكتئاب ؟! حتى نيرمين تشربت هذا الجو وأصبحت عجوزا فى سن السابعة من عمرها ..

انتفضت نيرمين فى فراشها عندما سمعت اسمها يذكر ، وصلَّت إلى الله بحرارة أن يعيد الحب إلى قلبى أبيها وأمها ..

قالت شريفة وقد تهدج صوتها :

ـــ لا تذكر نيرمين على لسانك .. أنت السبب فى كل ما حدث لها ؟! كم سألتنى عن سبب تغيبك الدائم عن البيت ، وكم اختلقت لها من الأسباب حتى لا أشوِّه فى عينيها صورة معبودها ؟!

ـــ أنت تعلمين جيدا سبب تغيبى عن البيت ؟!

ــ هل كنت أخبرها بالسبب الحقيقى ؟! كفاها الحالة التى تنتابها ؟!

ــ لقد عملت المستحيل لطرد شبح الكآبة حتى لا يخيم على البيت .. لكنك أدمنت الكآبة حتى تشبعت بها نيرمين !!

ــ أنت السبب فى كل ما جرى لنا !!

ــ المسألة فى غاية البساطة .. سأريحكم من وجودى ؟!

سمعت نيرمين أقدام أبيها تتجه خارج غرفة النوم فهبَّت جالسة فى فراشها وقد انتابتها رعشة كأنها فى مهب عاصفة ثلجية . صاحت أمها :

ــ إلى أين ؟!

ــ ولماذا السؤال ؟! إن وجودى سبب تعاستك !!

ــ أنا أعرف تماما إلى أين أنت ذاهب !! لكن ليكن فى علمك إذا عدت مرة ثانية فلن تجدنى فى هذا البيت الكئيب !!

ــ افعلى ما يحلو لك .. فلم أعد أحتمل أكثر من هذا !!

سار طارق مسرعا وفتح باب الشقة وهبط السلم مسرعا فى حين اجتاحت الرعشة كيان نيرمين وهى تسمع محرك سيارة أبيها الخارجة من الجراج .

فى لحظات كالبرق فى ليلة عاصفة ممطرة انطلقت نيرمين من فراشها كالسهم عبر قاعة المدخل وهبطت السلم بقميصها الأبيض الخفيف ، كانت سيارة أبيها قد غادرت الحديقة تحت وابل الأمطار التى اشتدت . انطلقت خارج الحديقة وهى تصرخ بأعلى صوتها والمياه تلطم وجهها متدفقة داخل فمها الصغير :

ــ بابا .. بابا .. ارجع .. بابا ..

رأى طارق فى مرآة سيارته طفلة تشبه نيرمين تجرى وراء عربته

وتصرخ : بابا . لم يصدق عينيه ! كيف لطفلة مثلها أن تجرى فى شارع شبه مظلم فى ليلة المطر والصقيع هذه ؟! إنها عين الخيال ونداء الأبوة داخله . لكن الطفلة لم تكن شبحا ، لأن سيارة مسرعة خلف طارق صدمتها وطارت الطفلة على الطوار الآخر .

توقفت السيارة وخرج منها قائدها مسرعا تجاه الطفلة التى تمددت على الطوار بلا حراك سوى قميصها الذى يكاد يطير مع الرياح العاصفة . فى اللحظة نفسها توقف طارق وجرى على قدميه تجاه الطفلة . فى اللحظة نفسها سمعت شريفة صوت « الفرملة » العنيفة والصرخة الجريحة ، فجرت كالمجنونة إلى فراش نيرمين . كادت تموت هلعا عندما وجدت الفراش خاويا . جرت بقميصها الخفيف لا تلوى على شىء تحت وابل المطر الذى انضم إليه هزيم الرعد ، فوجدت زوجها يحمل نيرمين ويهزها بين ذراعيه هاتفا صارخا باسمها ، لكن ما من مجيب ، فى حين وقف قائد السيارة مذهولا صارخا :

ـــ لم أرها !! كيف لطفلة مثلها تجرى فى شارع مظلم مثل هذا فى ليلة مطيرة باردة ؟!

لم تصدق شريفة نفسها . لا بد أنه كابوس سرعان ما تستيقظ منه !! لكنها لم تستيقظ . تضرعت إلى الله أن يمنحها القوة فى هذه اللحظة العصيبة ، وأن تقدم روحها فداء للعزيزة الصغيرة إذا كان فى هذا إنقاذها . فالوقت لا يسمح حتى بالإغماء ..

قال قائد السيارة وهو ينظر فى حيرة ذاهلة بين طارق وشريفة :

ـــ أنا تحت أمركما .. فالموقف صعب علىَّ مثلكما تماما .. فلى ابنة فى سنها تماما ..

فجأة قالت له شريفة وقد ومضت عيناها فى ضوء البرق :

ـــ أين سيارتك ؟!

أشار إلى السيارة الواقفة مفتوحة بالقرب من الطوار .. صاحت شريفة كأنها تقود جيشا فى معركة مصيرية :
— هيا بنا جميعا إلى مستشفى الدكتور محسن !!
سأل الغريب وهو يسرع لركوب السيارة :
— وأين هذا المستشفى ؟!
أجابت شريفة وهى تسرع مع طارق صوب العربة :
— فى مدينة الأطباء بالدقى ..
أدار الغريب المحرك فى حين جلست شريفة فى المقعد الخلفى بجوار طارق الذى احتضن نيرمين بجنون وهو يصرخ :
— أنا الذى قتلتها ؟! أنا السبب !! أنا المجرم !!
لكن شريفة أمسكت ذراعه بعنف وقالت :
— أنا مسئولة ومذنبة مثلك تماما .. لكن إيمانى بالله قوى .. ستعيش نيرمين من أجل حبنا لها ..
سرت بعض الطمأنينة داخل طارق فكف عن مناداة نيرمين لكنه لم يكف عن احتضانها بعنف . فى حين كان الغريب يقود السيارة عبر كوبرى الزمالك وماسحات المطر على الزجاج الأمامى تتحرك فى إيقاع مرعب . كانت الشوارع خالية تماما كأن القاهرة قد تحولت إلى مدينة مهجورة ليس فيها من حركة سوى الريح والمطر .
تولت شريفة توجيه الغريب عبر مدينة الأطباء حتى بلغوا مستشفى الدكتور محسن . جرى طارق خارج السيارة صاعدا بنيرمين السلم . وفى الاستقبال رأى الممرضة الجميلة التى رآها يوم زار محسنا ، نهضت مسرعة وحملت عنه نيرمين ثم وضعتها فوق نقالة متحركة فى حين قالت شريفة :
— نريد الدكتور محسن حالا ..

قال موظف الاستقبال الجالس أمام تحويلة التليفونات :
ـــ لقد قام الدكتور محسن بأربع عمليات اليوم .. ومع ذلك سنتصل به في المنزل ..
أدار الموظف قرص التليفون سائلا طارق :
ـــ حادثة ؟!
أجاب طارق فى اقتضاب وفمه يقطر مرارة :
ـــ نعم ..
وضع الموظف السماعة على أذنه سائلا طارق مرة أخرى :
ـــ من سيادتك ؟!
ـــ قل للدكتور محسن : طارق البدرى ..
رد الدكتور محسن وعرف موجز الكارثة من الموظف الذى أعطى السماعة لطارق الذى سرعان ما انهار باكيا ، فأخبره بأنه قادم فوراً ، وطلب من الممرضة إدخال نيرمين غرفة الأشعة . وضعت الممرضة سميرة ـــ وكان هذا اسمها ـــ السماعة وهى تقول لطارق وشريفة :
ـــ نبض « الأمورة » عادى .. وتنفسها طبيعى .. لكن نرجو أن تكون الكسور خفيفة بإذن الله ..
ردت روح طارق الذى شعر بسميرة وكأنها ملاك أرسله الله وتمنى لو ينحنى ويقبل يدها . دفعت سميرة النقالة واختفت بها داخل غرفة ظل طارق وشريفة يسيران أمام بابها المغلق جيئة وذهابا وهما يصليان ليتم الله فضله عليهما . جاء طبيب شاب مسرعا ودخل الغرفة وأغلقها خلفه .
سمع صوت سيارة خارج المستشفى فصلّت شريفة لعلّها سيارة محسن . وبالفعل كان محسن بينهما يربت عليهما محاولا بعث الطمأنينة داخلهما ، فى حين قبع الغريب على كرسى فى الممر ينعى حظه العاثر .

دخل الدكتور محسن غرفة الأشعة ومضت الثوانى كالسنين . لا يعرف طارق وشريفة كم سارا أمام باب الغرفة المغلقة ، وكم عدد المرات التى نظرا فيها إلى الساعة دون أن يعرفا الوقت ، فقد فقدا حتى القدرة على قراءة الزمن ؟!

خرج الدكتور من الغرفة مبتسما ابتسامة عريضة جعلت قلب شريفة يقفز عبر السحب والآفاق . قال محسن لهما :

ـــ إنكما محظوظان فعلا .. كشفت الأشعة عن مجرد شرخ فى ذراع نيرمين اليسرى .. كما أن هناك بعض الرضوض الشديدة فى القفص الصدرى ..

سأله طارق :

ـــ لكن لماذا لم ترد علىَّ ؟! وكنت أناديها طوال الطريق ؟!

ـــ أصيبت بإغماء نتيجة ارتجاج خفيف فى المخ ..

دقت شريفة بيدها على صدرها وهى تتساءل فى فزع :

ـــ ارتجاج فى المخ ؟!

أجاب محسن :

ـــ لا تخافى يا شريفة .. فقد قلت لكما إنكما محظوظان تماما ..

قال طارق وهو يحتضن محسناً بقوة :

ـــ إنها معجزة منَّ بها الله علينا !! آه يا محسن لو تعرف كيف صدمتها السيارة ؟!

سمع الغريب كلام طارق فترك مقعده وجاء لمحسن يقول :

ـــ كيف لى يا دكتور أن أتوقع وجود طفلة بهذه السن فى شارع مظلم فى ليلة مطيرة ؟!

فقال له محسن :

ـــ وأنت أيضا محظوظ ..

سأله الغريب مسرعا متوسلا :

ـــ وهل يمكنني الانصراف ؟!

قال محسن :

ـــ إذا سمح لك والداها ؟!

نظر الغريب إليهما مستعطفا فقالت له شريفة فى حسم تعجب له محسن :

ـــ يمكنك الانصراف .. فنحن صدمنا نيرمين قبل أن تصدمها أنت ؟!

لم يفهم الغريب كلام شريفة وظنه هذيان أم ، لكنه انحنى أكثر من مرة وهو يشكرها ، وسرعان ما اختفى مغادراً المستشفى .

في تلك الأثناء كانت غرفة العمليات قد أعدت . وخرجت سميرة تدفع أمامها النقالة وسرعان ما جرت شريفة ومعها طارق حول نيرمين التى تململت وتأوهت ألما . أمسكت شريفة بيدها الصغيرة لكن سميرة أبعدتها برقة ودخلت بالنقالة غرفة العمليات وخلفها محسن ومعه الطبيب الشاب الذى دخل غرفة الأشعة من قبل .

سار طارق وشريفة عدة أميال على مساحة لا تزيد على عشرة أمتار أمام غرفة العمليات . وعندما تجاوزت الساعة الرابعة صباحا خرجت نيرمين ممددة على النقالة تدفعها سميرة وخلفها الطبيب الشاب الذى سبقها إلى إحدى الغرف .

كان بالغرفة سريران يتسع كل منهما لفرد واحد . حمل الطبيب الشاب ومعه سميرة نيرمين بمنتهى الحرص ووضعاها على أحد السريرين . وسرعان ما كان طارق وشريفة حولها . كانت لا تزال تحت تأثير المخدر فى حين وضعت ذراعها اليسرى فى الجبس ، والتفت الضمادات والأربطة الضاغطة حول صدرها الصغير ، وأحاطت ملاءة

بيضاء بجسدها كله ، ذلك أن قميصها المبتل بماء المطر قد وضع فى آلة التجفيف بالمستشفى .

جلست شريفة إلى جانبها ممسكة بيدها الصغيرة والدموع تتدفق من عينيها فى صمت بليغ ، غير شاعرة بقميصها الخفيف المبتل ، فى حين جلس طارق عند قدميها لم يرفع عينيه من على وجهها ، وكأنه كان يتحاشى أن تلتقى عيناه بوجه شريفة التى يبدو أنها كانت تتحاشاه بدورها ، ليس كرها أو لا مبالاة وإنما خجلا .

تسلل الدكتور محسن إلى الغرفة دون أن يشعر بوجوده أى منهما . كان مدركا لحساسية الموقف بصفته صديقا حميما للعائلة ، لكن سرعان ما رأته شريفة فمسحت دموعها . شعر طارق بوجوده فالتفت إليه ونهض مرحبا ، فقال له وهو يجلس على كرسى قريب :

ــ استرح يا طارق .. لقد كان درسا قاسيا !!

جلس طارق فى مكانه على السرير عند قدمى نيرمين فى حين ردت شريفة على محسن :

ــ وأى درس يا دكتور محسن !! لقد كان كابوسا حيا !!

لم يعرف محسن تفاصيل الحادث لكنه أدرك من نظرات طارق وشريفة أن ما جرى بينهما كانت له صلة وثيقة بما حدث لنيرمين . وتذكر نشوى والحديث الذى جرى بينه وبين طارق بشأنها ، فطفحت كراهيته لها . ما ذنب هذا الملاك البرىء الطاهر كى يتحمل خطايا الكبار ؟! وجد محسن نفسه يقول دون أن يوجه كلامه إلى أى منهما :

ــ يظن الكبار دائم أن مهمتهم تلقين الصغار الدرس تلو الآخر ، وفجأة يتلقى الكبار درس العمر على أيدى الصغار ..

نظر طارق إلى محسن وتذكر الحوار بينه وبين محسن حول نشوى . لسعه الندم لكن إحساسه بفضل الله عليه هبط على قلبه الملتهب

كندف الثلج الهابطة مع المطر . أدرك محسن أن ما قاله كان أكبر مما يحتمله الموقف . نهض فنهضت شريفة وطارق وآيات عرفان الجميل تتكلم على وجهيهما . قال محسن :

ــ عن إذنكم .. سأذهب لأنام بعض الوقت وسأعود فى العاشرة لأطمئن على نيرمين ..

قال طارق ومعه شريفة :

ــ مع السلامة يا دكتور محسن ..

أضافت شريفة :

ــ أزعجناك .. بدونك لم نكن نعرف ماذا نفعل ؟!

أضاف طارق :

ــ حفظك الله لنا .. طبيبا وصديقا !!

ضحك محسن وهو يستعد لمغادرة الغرفة :

ــ الصداقة الحقيقية فى نظرى أفضل وسائل الطب فى العلاج ..

خرج الدكتور محسن وكان شعاع الفجر يتسلل من النافذة الواقعة خلف السرير . توقف المطر وبدت الدنيا خارج النافذة نظيفة لامعة نقية ، والشجرة المطلة برأسها أكثر نضرة واخضراراً وكأنها خرجت لتوها من الحمام . ومع تراجع فلول الظلام أمام غزو الضياء انطلقت العصافير بين الأشجار تزقزق وهى تحمل بين مناقيرها العشب والحشائش . أخيرا بعد ليلة حالكة السواد باستثناء لحظات البرق ، كشفت الطبيعة عن وجهها البرىء الجميل الذى أطل على الثلاثة من خلال زجاج النافذة .

نظر طارق إلى ساعته التى كانت تقترب من السادسة فقال لشريفة :

ــ سأذهب الآن إلى البيت لإحضار ملابس لك ولنيرمين .. ولكى أخبر كريماً بما حدث بطريقة لا تصدمه .. إننى أخشى أن يستيقظ فلا يجد أحدا منا .. وخاصة أن دادا سنية لا تعرف شيئا .. وكذلك سأمر

على مدرسة نيرمين كي أقدم لها إجازة مرضية .. وسأعود بمجرد الانتهاء من هذه المهمة .. هل تطلبين شيئا آخر ؟!

قالت شريفة ولا تزال تتحاشى عينيه :

— سلامتك ..

خرج طارق تاركا شريفة وهى تحتضن نيرمين التى لا زالت تحت تأثير المخدر وإن كانت حركتها قد بدت ملحوظة . وعندما افترشت الشمس أرض الغرفة فتحت نيرمين عينيها وتململت فى فراشها . نظرت حولها فرأت أمها . قالت بصوت واهن خائف :

— أين أنا يا ماما ؟!

— في حضنى يا روح قلبى ..

نظرت حولها مرة أخرى ولكن بإمعان أشد :

— هذه ليست حجرتى !! لماذا أنام فى هذه الحجرة ؟! ماذا حدث ؟!

حاولت النهوض جالسة لكنها اكتشفت ثقل ذراعها اليسرى ، والأربطة الضاغطة على صدرها ، فاستسلمت مرة أخرى لحضن أمها متسائلة :

— أين بابا ؟!

لم تعرف شريفة بماذا تجيبها فأشاحت بوجهها بعيدا حتى لا ترى نيرمين الدموع الصامتة المترقرقة على خديها . تذكرت نيرمين جريها ليلة أمس خلف عربة أبيها فقالت مكملة حديثها :

— لقد جريت وراءه .. لكنه لم يسمعنى .. ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟! لماذا لا تتكلمين يا ماما ؟! أين بابا ؟! هل ذهب ولن يعود ؟!

لم تتكلم شريفة لكن عقدة لسانها انفكت عندما انفجرت نيرمين باكية . قالت :

ـــ سيعود بابا يا نيرمين !! لا تخافى يا حبيبتى .. لقد ذهب لإحضار كريم . أما أنت فستمكثين هنا ونحن معك حتى تشفى ذراعك ..

نظرت نيرمين إلى أمها وكأنها تتذكر شيئا :

ـــ آه .. فهمت كل شيء .. لقد صدمتنى عربة أمس .. ولهذا فأنا هنا ..

ضمتها شريفة إلى صدرها لكن نيرمين تساءلت :

ـــ لقد خرج بابا وفى نيته ألا يعود ؟! قولى لى الحقيقة يا ماما ؟! أنا لا أستطيع أن أعيش لحظة بدون بابا ..

ـــ صدقينى يا حبيبتى .. بابا سيعود من المنزل ومعه كريم .. كنت نائمة عندما ذهب إلى المنزل ..

نظرت نيرمين إلى سقف الغرفة وقالت فى ضراعة :

ـــ يا ربّ .. رجّع بابا ..

كانت شريفة على وشك الإجهاش بالبكاء لكنها تماسكت قدر إمكانها ، ومسحت وجهها بيدها وهى تقول :

ـــ سيرجع !! سيرجع يا روح قلبى ..

ظلت شريفة تحتضن ابنتها وتربت عليها حتى استسلمت للنوم مرة أخرى . كانت تعد الدقائق والساعات متمنية ألا تستيقظ نيرمين قبل عودة زوجها . لكن نيرمين بعد أن جاوزت الساعة التاسعة فتحت عينيها وألقت بنفس السؤال :

ـــ أين بابا ؟! ألم يعد بعد ؟!

أجابت شريفة وقلبها يكاد ينفطر أسى :

ـــ صدقينى يا حبيبتى سيعود حالا ..

لم تحتمل شريفة رؤية الدموع فى عينى صغيرتها فأشاحت

بوجهها ، لكنها سمعت أقداما تجرى نحو الغرفة ، وفى لحظات رأت كريما يندفع كالسهم صوب سرير نيرمين ويحتضنها ويقبلها قائلا :

ــ سلامتك يا نيرمين .. سلامتك ألف سلامة ..

ابتسمت نيرمين وسألت :

ــ أين بابا ؟!

أجاب كريم وهو لا يزال يلهث :

ــ إنه يحضر بعض الأشياء من العربة ، وسيأتى حالا ..

وبمجرد أن انتهى كريم من جملته دخل طارق يحمل حقيبة سفر متوسطة الحجم وضعها بجوار السرير من الناحية الأخرى . قبَّل نيرمين وجلس ممسكا بيدها الأخرى . لم يستطع طارق أن يمسك نفسه عن الكلام وهو يرى الفرحة العارمة فى عينيها :

ــ أنا السبب فى كل ما جرى لك يا حبيبتى !!

ربتت نيرمين بيدها الصغيرة على وجه أبيها :

ــ عودتك يا بابا بالدنيا كلها .

ظنت نشوى فى بادىء الأمر أن ما حدث لنيرمين سيضع نهاية حقيقية للحياة الزوجية بين طارق وشريفة . لكن ظنها خاب مع مرور الأيام وغياب طارق عن عمله . حاولت الاتصال به مراراً فى المنزل لكنه لم يكن هناك أيضا ، قامت بالمحاولة نفسها فى المستشفى لكنها كانت لا ترد وتضع السماعة فى كل مرة ترد عليها شريفة .

وبعد أسبوع من المحاولات الفاشلة رد عليها طارق أخيرا . لكنها شعرت بلهجته الجادة المختلفة وهو يشكرها عن اهتمامها البالغ بنيرمين . وعندما سألته عن ميعاد عودته إلى العمل أجاب فى حزم غريب :

ـــ فليذهب العمل إلى الجحيم .. المهم شفاء نيرمين أولا !!

سألته وهى تمسك السماعة بعصبية :

ـــ ومتى ستخرج نيرمين من المستشفى ؟!

ـــ غداً .. بإذن الله ..

قالت على سبيل جس النبض وهى تقاوم الإحباط داخلها :

ـــ كنت أود زيارة نيرمين !!

قال وكأنه ينهى المكالمة :

ـــ يمكنك زيارتها اليوم أو غداً فى المستشفى .. أما بعد ذلك فمرحبا بك فى بيتنا .. وسيسر شريفة جداً أن تراك ..

أخيراً تأكدت نشوى أن شكوكها كانت فى محلها . قالت وهى تنهى المكالمة :

— سأحاول زيارتكم قبل خروج نيرمين من المستشفى ! مع السلامة !

وضعت نشوى السماعة ثم أشعلت سيجارة بيد مرتعشة على الرغم من أنها لم تكن تدخن إلا فى المناسبات . كانت تجلس فى نفس المقعد الذى جلس عليه طارق عندما اعتاد زيارتها فى الفترة الأخيرة . نهضت وخرجت إلى الشرفة . كان النيل يسير فى جلاله صامتا مهيبا . حتى العربات التى كانت تخترق كوبرى أبو العلا على يمينها ، والقطار الذى عبر كوبرى امبابة على يسارها ، كلها أحدثت ضجيجا واهنا لم يعكر هدوء الدور العاشر .

أحست بالعزلة القاتلة . نظرت إلى ساعتها . كانت تشير إلى الرابعة مساء . دخلت غرفة الصالون مرة أخرى . أطفأت السيجارة فى المنفضة . جلست وبحركة لا إرادية وضعت جهاز التليفون فى حجرها وأدارت قرصه ست مرات وهى تضع السماعة على أذنها بيد مرتعشة :

— آلو .. هشام .. أهلا يا حبيبى .. سأقول لك خبرين عظيمين .. الأول قديم .. والثانى جديد .... الأول أننى أحبك حتى العبادة .. والثانى .. لقد وافقت ماما على زواجنا وباركته .. ولن أطيل عليك فأنا أريد أن أراك حالا .. تعالى إلى شقتى .. سأحكى لك كل شيء .. ونحن فى طريقنا لزيارة مهمة ... لا تضيع الوقت فى أسئلة سأجيبك عنها عندما تأتى ... مع السلامة ..

وضعت نشوى السماعة وصدرها يعلو ويهبط . ذهبت إلى غرفة نومها وأبدلت حلتها الرمادية بفستان أصفر به بعض الدوائر الذهبية التى تضاهى شعرها بخصلاته المتناثرة . تفننت فى زينتها ، مستخدمة عطراً آخر غير ذلك الذى اعتاده طارق .

عادت إلى الجلوس فى الشرفة وقد أصبحت أكثر هدوءاً . رأت عربة

هشام الصغيرة القديمة تقف أسفل العمارة . خرج منها ودخل العمارة . هرعت إلى باب الشقة وفتحته . بعد لحظات توقف المصعد وخرج منه هشام الذى رآها خلف الباب . قدَّم قدماً وأخَّر أخرى وهو لا يكاد يصدق التطور الخطير الذى حدث بين غمضةعين وانتباهتها . مد يده للسلام فجذبته إلى الداخل بجاذبية لا تقاوم وأغلقت الباب .

فجأة وجد نفسه معها تحت سقف واحد بعد أن اعتاد الجلوس معها فى عربته الصغيرة فى الأماكن والأحياء الهادئة المنعزلة . قادته إلى الصالون وأجلسته على مقعد طارق . وقفت أمامه بقوامها الفارع حتى يتأمله ملياً . مسحته عيناه من قدميها حتى وجهها ذى الابتسامة الغامضة المغرية الساحرة المتحالفة مع عطرها النفاذ المخدر . تأكد أنه لا يحلم عندما استيقظ على صوتها :

ــ ماذا تحب أن تشرب يا حبيبى ؟!

تلعثم غير مصدق لما يدور . قال :

ــ تفضلى بالجلوس .. لست ضيفا ..

ــ إننى لا أستقبل ضيفا .. وإنما أستقبل حبيبى .. خطيبى وزوجى ..

بحركة لا إرادية نهض هشام وأمسك بيدها . انحنى عليها مقبِّلا بكل تقديس فأجلسته مرة أخرى فى مقعده وأسرعت بالجلوس على الحشية الجلدية عند قدميه . رفعت رأسها مركزة عينيها على عينيه . أمسكت يده ووضعتها على وجنتها ثم قربتها من فمها وقبلتها . سحبها برفق لكن جحافل النمل شنت هجوما كاسحا من أطرافه الباردة صوب منطقة القلب الذى عزف أنغاما متضاربة . تأكدت نشوى من مفعول القبلة فألصقت صدرها بركبته فسرت فيها طراوة نهدها . زاد تقديسه لها ! فهى لم تفعل هذا إلا بعد موافقة أمها وتأكدها من الزواج منه !! لم

تكن تسمح لنفسها من قبل أن تزيد فى ارتباطها به على مجرد قبلة بريئة على خده . كان يظن أن بنات طبقتها من التفرنج بحيث يمكن أن يفرطن فى أى شىء !! لكنها أثبتت له من حيث لا تدرى أنها ربة الصون والعفاف . فهنيئا له جمالها ورقيها وعقلها وعفافها !!

أغمضت نشوى عينيها وأسندت رأسها الذهبى إلى ركبته ممسكة بساقه . لم يدر هشام ماذا يفعل ؟! لقد قالت له إنهما فى طريقهما إلى زيارة مهمة !! فهل هى زيارة إلى أمها كى ترى خطيب ابنتها ؟! لماذا يستعجل الأمور ؟! لماذا يستعجل الخروج من هذه الجنة ؟! إنه لن يكرر غلطة آدم !! فليترك الأمور تجرى فى أعنَّتِها وليستمتع باللحظات التى طالما حلم بها وإذ بها واقع أروع من أى خيال !!

رفعت نشوى عينيها المسبلتين ناظرة إلى عينيه من بين أهدابها . هل تسمح له بأن يقبلها ؟! سأل نفسه ! إن ما يجرى الآن ليس له إلا معنى واحد ! لقد سلمت نفسها إليه بعد أن تأكدت من الزواج منه !! لكنه لن يسمح لنفسه بأن يتجاوز حدوده . سيثبت لها أن ثقتها فيه فى محلها . انحنى على شفتيها المنفرجتين ولمسهما برقة حانية ، وعندما شرع فى الابتعاد جذبته بذراعها اليسرى من مؤخرة رأسه وأطبقت بشفتيها على شفتيه فاصطكت الأسنان واضطربت الصدور وسال اللعاب وانتابه دوار لم يألفه من قبل ..

تحول هشام إلى عجينة من الصلصال المرن ، لكن نشوى نهضت متخلصة من ذراعيه برقة وهى تقول :

ــ زواجنا على الأبواب .. بعده نستطيع أن نفعل كل شىء .. هيا بنا الآن لنزور ابنة صاحب الشركة فى المستشفى .. فقد وقع لها حادث .. وستخرج غداً من المستشفى .. وأريد أن أوفر على نفسى مشقة زيارتهم بالمنزل ..

نهض هشام بدوره وهو يصلح من رباط عنقه :
ـــ إنه ليس غريباً .. أليس ابن عمك ؟!
ذهبت إلى المرآة القريبة من المدخل وشرعت فى إصلاح زينتها وهندام خصلاتها الذهبية وهى تقول لهشام الذى تبعها :
ـــ كل رجل غير هشام حبيبى ، غريب مهما كانت قرابته لى !!
هم بأن يحتضنها لكنها ابتعدت قليلا وأخرجت منديلها من حقيبتها ومسحت أحمر الشفاه العالق بشفتيه وخديه ، ثم جذبته من يده وفتحت باب الشقة . خرج وراءها . أغلقت الباب . أسرع فضغط زر المصعد الذى هبط بهما . ذهب لفتح باب عربته لها لكنها أمسكت به وقدمت له مفتاح عربتها :
ـــ أريدك أن تقود عربتى .. من اليوم ليس هناك فرق بين ما أملكه وبين ما تملكه !!
حاول المقاومة لكنها أصرَّت فرضخ . قاد العربة وكله إحساس بذراعها اليسرى الممتدة على ظهر مقعده تلامس كتفيه من حين لآخر . انطلقت العربة وسط الظلام فى طريقها إلى مدينة الأطباء . تنهد من حين لآخر ليملأ أنفه بعطرها الساحر ؟! إن العالم كله سيحسده عندما يتزوج من هذه الساحرة !! كم أساء الظن بطبقتها ؟! كم أعمته المبادىء الاشتراكية التى اعتنقها عن رؤية حقائق البشر ؟! إنها لم تهتم بكل الفوارق الطبقية بينهما : كان جدها رئيسا لوزراء مصر ! صحيح أن الإنجليز هم الذين وضعوه على كرسى رئاسة الوزارة حتى أطاحت به الضغوط التى مارسها حزب الوفد ، لكن هذا لا ينفى أو يلغى الفوارق الطبقية بينهما . أما أبوها فكان أحد نجوم آخر وزارة قبل قيام الجيش بثورته فى يوليو ١٩٥٢ ، ثم انهالت على أسرتها ضربات تحديد الملكية والإصلاح الزراعى والتأميمات ، وهى الإجراءات التى طرب لها قلبه

الصغير فى صباه وصدر شبابه . فقد ظل أبوه حبيس الدرجة السادسة الفنية عشرين عاما ، وأصبح ضمن فئة الموظفين الذين أطلق عليهم قبل الثورة اصطلاح « المنسيين » . وبعد الثورة حصل أبوه على الدرجة الخامسة ، لكنه لم يهنأ بها إذ أحيل على المعاش بعدها بخمس سنوات . تذكر هشام أنه لم يرتد حلة كاملة فى صباه ، والحذاء الذى كان يبدأ به عامه الدراسى لا بد أن ينتهى به مهما حدث له من تمزقات أو ثقوب . وكانت أول حلة كاملة يرتديها هى حلة قديمة تركها له أبوه بعد استهلاك عشرين عاما ، وبعد أن أصبح حجمه يسمح بارتدائها . وكانت نكتة أبيه المفضلة أنه اشتراها قبل ميلاده بشهور كى يكون فى السرادق الذى أعد لاستقبال الأميرة فوزية التى أتت إلى المديرية لافتتاح المبرة الجديدة . وعندما سأل أبوه عما إذا كان قد سلّم على الأميرة . ضحك وقال : لم يتبق سوى أن تصافح الأميرة معاون المحطة !! سأله مرة أخرى : لماذا إذاً الحلة الجديدة والذهاب إلى سرادق الاستقبال ؟! أجاب : طلبوا من كل موظفى المديرية التواجد فى مظاهرة للترحيب بالأميرة ، ولذلك لم ير سوى ظهرها وهى تهب بركوب العربة السوداء الحمراء بعد افتتاح المبرة .

يومها شعر هشام بوجوده كحشرة . سمع هذه القصة من أبيه لأول مرة وهو فى العاشرة من عمره . وكانت القصة تكبر معه بمرور الأيام ، وكثيرا ما تعجب من أمر أبيه الفخور برؤيته لظهر الأميرة . كان ناقما على الفوارق الطبقية التى سمع عنها الكثير من الجيل القديم فى أسرته الكادحة ، وحمد الله أنه ترعرع فى ظل الثورة التى أتاحت له التعليم والتفوق حتى استطاع أن يلتحق بوزارة الخارجية التى كانت قاصرة على أبناء طبقة نشوى .

ودارت الأيام وعرف نشوى التى نجحت فى تصحيح الكثير من مفاهيمه الخاطئة عن طبقتها . إن الحقد الذى كان يكنه لها لم يكن فى محله ، لأنها سرعان ما فتحت له ذراعيها وهو القادم من براثن طبقة لم تحلم فى يوم من الأيام بمجرد اللقاء بالطبقة العليا ، فما بالك بالزواج والإنجاب والعيش فى باريس على قدم المساواة ؟! صحيح أن الحب لا يعرف الفوارق المصطنعة بين البشر بدليل أن نشوى الأرستقراطية الجميلة الثرية الفاتنة لم تختر شابا من طبقتها وكان يمكنها ذلك فالكل يتمنونها ، بل اختارت الشاب الذى تدلهت فى غرامه وأوشكت أن تعتنق آراءه الاشتراكية !! وكان من حسن طالعه أن يكون هو هذا الشاب المحظوظ .

استيقظ هشام من خواطره المتزاحمة على سؤال نشوى :

ـــ ألا تدرك خطورة الشرود فى أثناء القيادة ؟!

نظر إليها مبتسما وأخذ يدها وقبَّلها قائلا :

ـــ كنت أفكر فيك يا روحى !!

ـــ وماذا تفعل عندما أكون بعيدة عنك ؟!

ضحك وهو يقبِّل يدها مرة أخرى :

ـــ أعيش معك !!

سحبت يدها برفق وأشارت إليه أن ينحنى يسارا ثم يمينا . وبعد لحظات كانت العربة تقف أمام المستشفى .

وقفت نشوى أمام قسم الاستقبال وخلفها هشام . لمحتها سميرة الممرضة فعرفتها فى الحال . نهضت مرحبة بها وقادتها إلى مكتب الدكتور محسن . تبعتها نشوى على الرغم من أنها جاءت لزيارة طارق وابنته وليس لزيارة محسن الذى ذهل عندما رآها فنهض من وراء مكتبه ورحب بها فى حرج . كان هشام يقف وراءها فى حرج أشد لكنها

قدمته إليه بثقة وهى تجلس على أقرب مقعد :

ـــ هشام بك .. خطيبى .. وسنتزوج فى الأسبوع القادم قبل سفرنا إلى باريس .. فهو دبلوماسى فى سفارتنا هناك ..

سعد هشام عندما وجد لقب البكوية يلحق باسمه ، انحنى مصافحا الدكتور محسن الذى قدمته إليه نشوى بقولها :

ـــ الدكتور محسن صاحب ومدير المستشفى ..

أدرك هشام فى الحال أنه زوجها السابق ، فانتابته غصة من الغيرة لكنه تغلب عليها وقال متصنعا الابتسام :

ـــ أهلا وسهلا .. فرصة سعيدة يا دكتور ..

أشار إليه محسن بالجلوس فجلس فى مواجهة نشوى فى حين عاد محسن إلى مكتبه قائلا :

ـــ خطوة عزيزة . ومبروك الخطبة ..

أجاب هشام بمزيج من الحرج والخجل والتعجب من هذه الروح الرياضية :

ـــ الله يبارك فيك ..

قالت نشوى :

ـــ أردت بمجيئى أن أضرب عصفورين بحجر واحد !!

ضحك محسن متسائلا :

ـــ ومن هو العصفور الأول ؟!

أجابت ببساطة :

ـــ أنت !!

ذهل هشام لهذه الإجابة لكنه آثر كتمان مشاعره فى حين استمر محسن فى تساؤلاته وكأنه يسألها عن حالة الطقس اليوم :

ـــ والعصفور الثانى ؟!

ـــ طارق !

انفجر محسن ضاحكا متسائلا :

ـــ والحجر ؟!

ضحكت بدورها باستهتار لم يسترح له هشام وقالت :

ـــ سأترك تخمينه لذكائك !!

نظر محسن إلى هشام وأحس ببعض ما يجيش داخله ، فندم على تركه نفسه على سجيتها . قال متداركا الموقف :

ـــ والآن بعد أن ضربت العصفور الأول هيا بنا لضرب العصفور الثانى !!

نهض الدكتور محسن وأشار لهما بالخروج ثم خرج خلفهما وتقدمهما عبر الممر إلى أن وصل إلى غرفة نيرمين حيث كان طارق يجلس على مقعد على يسار السرير ، فى حين جلست شريفة على السرير بجوار نيرمين الجالسة وقد علقت ذراعها اليسرى برباط فى عنقها بعد أن تم فك الجبس عنها . أما كريم فكان يستذكر دروسه تحت مصباح فى ركن قصى .. لمح طارق نظرات الرعب والذهول فى عينى نيرمين لكنه نهض مرحبا بها وبهشام الذى حاول أن يتذكر أين رآه من قبل ؟!

صافحت نشوى طارقاً بحفاوة مفتعلة ، ثم انحنت مقبلة شريفة التى لم تستطع إخفاء غدم حفاوتها بها . وعندما انحنت نشوى لتقبيل نيرمين تباعدت عنها بقدر إمكانها لدرجة أنها طبعت قبلتها فى الهواء وسط دهشتها البالغة لسلوك الطفلة .

أحس الدكتور محسن بحرج الموقف فقدم هشاما إلى الأسرة :

ـــ هشام بك .. خطيب مدام نشوى .. وسيتزوجان الأسبوع القادم قبل سفرهما إلى باريس .. فسيادته دبلوماسى فى سفارتنا هناك ..

قال طارق وشريفة فى صوت واحد زاخر بالترحيب الحار الصادق :
ـــ أهلا وسهلا ..

تذكره طارق فى الحال . إنه الشاب الذى قابله فى مكتب نشوى وحدثه عن مصطفى زوج أخت شريفة . كان ينوى أن يسأل نشوى عنه فى لقائهما التالى لكنه لم يعرف ما الذى جعله ينسى ؟! عموما فالأمر لا يهم الآن . كانت السعادة ناطقة على وجه شريفة ، أما الذى ذهل له طارق فكانت تلك النشوة الجزلى التى نضحت بها عينا نيرمين بعد نظرات الرعب والذهول التى قابلت بها نشوى وإصرارها على تجنب قبلتها .

جلست نشوى على أريكة جانبية وإلى جوارها هشام فى حين استأذن الدكتور محسن وخرج . سأل طارق نفسه : هل كانت نشوى تخطط للزواج من هشام كما كانت تخطط معه ؟! فإذا لم تفز به فإن هشاما لا يزال فى جعبتها ؟! حتى هذه الإجابة ـــ لو حصل عليها ـــ فإنها لا تهم الآن .

فتحت نشوى حقيبتها الصغيرة الأنيقة وأخرجت منها علبة من القطيفة الحمراء وضعتها فى حجر نيرمين قائلة :

ـــ تذكار بسيط قبل سفرنا إلى باريس .. وبمناسبة سلامتك ..

قالت شريفة متسائلة فى حرج رقيق :

ـــ ولماذا الكلفة ؟! تشريفك يكفى !!

أجابت نشوى فى حسم رقيق :

ـــ لا يصح هذا الكلام بين الأصدقاء والأقارب !!

لم تستطع نيرمين فتح العلبة بيد واحدة فأخذتها شريفة وفتحتها فوجدت سلسلة ذهبية فى نهايتها قوس النصر الذى سرعان ما تعرفت

عليه نيرمين بعد أن شاهدته مع أمها فى أثناء زيارتهم لطنط أمل فى باريس .

لمح طارق قوس النصر فى يد الصغيرة فثار حنقه لكنه حمد الله أنه عرف نشوى على حقيقتها قبل فوات الأوان . فقد كان قوس النصر هديته لنشوى فى الليلة المشئومة التى قضاها عندها والتى انتهت بحادث نيرمين . وها هى تعيد هديته لها إلى ابنته ، وكأنها تريد الانتقام منه أو جرح كبريائه بطريقة أو بأخرى ! كيف تنقلب هكذا بين يوم وليلة بعد أن أقنعته تماما ألّا حياة لها بدونه ولو للحظة واحدة ؟! نظر طارق إلى هشام ورثى لحاله الذى أوقعه بين أنياب هذه الحية الملساء الجميلة !! فى حين كانت نيرمين تنظر إلى هذا الغريب بإعزاز لا مزيد عليه أثار الكثير من علامات الاستفهام والتعجب فى مخيلة أبيها !

لم تجد نشوى ما تقوله بعد أن رأت نظرات طارق الزاخرة بالاشمئزاز والاحتقار . نهضت مهنئة بسلامة نيرمين ومثلها فعل هشام . صافحا الجميع وغادرا الغرفة . طلبت شريفة من زوجها توصيلهما إلى باب المستشفى لكن طارقاً أجاب إجابة أثارت دهشة شريفة لما تحمله من حسم استفزازى :

ــ إنها تعرف طريقها جيدا ولا تحتاج لمن يدلها !

في الصباح قفز طارق درجات سلم المستشفى ، كل درجتين أو ثلاث في خطوة واحدة . ألقى بتحية الصباح لموظف الاستقبال وسرعان ما كان في غرفة نيرمين التي ارتدت ملابس الخروج ومعها أمها . فقد كانت على أهبة الاستعداد للخروج . سأل طارق شريفة :

ــ لماذا استيقظتما هكذا مبكراً ؟! هل نامت نيرمين نوما هادئا ؟!

فوجيء طارق بنيرمين تقول وكأنها امرأة خبرت الحياة :

ــ لم أنم منذ شهور مثلما نمت الليلة ؟!

علّق طارق بقوله :

ــ طبعا .. لأنك ستعودين اليوم إلى البيت !!

ثم تدارك متسائلا :

ــ لكن لماذا منذ شهور ؟! إن الأمر كله لم يستغرق أكثر من أسبوع !!

كانت نيرمين تبتسم وكأنها تخفي شيئا خلف ابتسامتها . ترك طارق الحقيبة التي كان قد شرع في ترتيبها وسأل نيرمين :

ــ أراك تبتسمين ابتسامة ذات معنى لا أدركه ؟! هل تخفين شيئا عن حبيبك ؟!

وقفت نيرمين إلى جوار أبيها وطبعت على خدّه قبلة وهو منهمك في ترتيب الحقيبة وقالت :

ــ الآن لا أستطيع أن أخفي شيئا عن حبيبي !!

ترك طارق الحقيبة مرة أخرى واحتضن ابنته وأجلسها على ساقيه

مستريحا فوق مقعد قريب فى حين استأنفت شريفة ترتيبها للحقيبة .
قال لها :
ــ قولى لى .. ماذا تخفين ؟!
أجابت وهى تداعب خصلة شعره الذهبى الساقطة على أذنه :
ــ أتذكر يوم أحضرنى كريم من النادى باكية .. ولم أقص عليكما سبب بكائى ؟!
سمعت شريفة ما قالته ابنتها فتركت الحقيبة ووقفت ملتصقة بمقعد زوجها سائلة :
ــ وهل كان هناك سبب حقيقى لبكائك ؟!
ــ نعم كان هناك سبب حقيقى !!
ــ ولماذا صممت على إخفائه ؟!
ــ لم أعرف كيف أدلى به ؟! ولم أملك سوى الصمت أو البكاء !!
سألتها شريفة فى لهفة :
ــ هل هو سبب خطير ؟!
أمسكت نيرمين بيد أمها وهى تقول مربتة عليها :
ــ لا تنزعجى يا ماما .. الحكاية كلها أننى كنت ألعب مع شيرين ابنة طنط نادية بجوار أمها التى كانت تجلس إلى المائدة فى النادى مع طنط نرجس وطنط خيرية . وإذا بطنط نادية تقول لهما إن نشوى ستتزوج من طارق بعد أن يطلق شريفة ..
سألها طارق ومعه شريفة فى لهفة متصاعدة :
ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟!
ــ أكدت طنط نرجس معرفتها بالخبر .. فى حين أبدت طنط خيرية احتقارها لطنط نشوى ولبابا فى الوقت نفسه .. وتساءلت عن مصير الأولاد : تقصدنى أنا وأخى طبعا ..

اغرورقت عينا شريفة بالدموع وهى تسأل ابنتها :
— وماذا حدث بعد ذلك ؟!
— توقفت عن اللعب مع شيرين .. وانفجرت باكية .. حاولت طنط نادية تهدئتى لكنها لم تنجح فطلبت من شيرين أن تجرى وتستدعى أخى حتى يصطحبنى إلى البيت . وفعلا جاء كريم واصطحبنى إلى البيت ..
قال طارق معاتبا :
— وهل يصح يا حبيبتى أن تصدقى أى كلام يقال عن بابا وماما ؟! وهل يصح أيضا أن تكتمى مثل هذا الكلام الفارغ وأن تتعذبى لدرجة أن تتخلفى فى دراستك بعد أن كنت من أحسن تلاميذ المدرسة ؟!
— لم أكن أتصوَّر أن يترك بابا حبيبى البيت كى يتزوج من امرأة أخرى غير ماما ؟!
— ولا يصح أيضاً أن تتصوَّرى أشياء غير صحيحة !!
تبادل طارق وشريفة نظرات زاخرة بالإحساس بالذنب لكن نيرمين قطعت هذه النظرات بقولها :
— لم أعرف أنها أشياء غير صحيحة إلا بالأمس فقط عندما حضرت طنط نشوى ومعها خطيبها ..
أشاح طارق بوجهه بعيدا حتى لا ترى نيرمين عينيه المنذرتين بالدموع ، لكنها ظنَّت أنه تضايق من سلوكها فقالت :
— اعذرنى يا بابا .. فقد كان غيابك المستمر عن البيت .. وبكاء ماما الدائم فى غرفتها .. وعودتك المتأخرة كل ليلة من الأسباب التى جعلتنى أصدق الكلام الفارغ الذى سمعته ..
قال طارق وقد حل الذهول محل الإحساس بالذنب :
— وهل كنت تلاحظين كل هذا ؟!

ـــ وأكثر من هذا !! كنت لا أنام كل ليلة قبل أن أسمع مفتاحك في باب البيت .. وأحيانا كنت أقضى الليل بطوله أصلّى لربنا حتى لا تفرّق بينكما طنط نشوى التى ظلمتها كثيرا ..

انفجرت شريفة باكية وهى تحتضن ابنتها بشدة :

ـــ كفى .. كفى !!

مسحت نيرمين دموع أمها بيدها الصغيرة التى قبلتها أمها فى حنان وتقديس . كانت الصغيرة مندهشة فقالت متسائلة :

ـــ أرجو ألا أكون قد ضايقتك يا ماما ؟!

قالت الأم بسرعة :

ـــ أبداً .. أبداً ..

هرب طارق من انفعال الموقف بانشغاله فى الانتهاء من ترتيب الحقيبة . وسرعان ما حملها خارجا وخلفه شريفة ونيرمين . كانت سميرة وموظف الاستقبال فى وداعهم . جلس طارق أمام عجلة القيادة وبجواره شريفة محتضنة نيرمين . وعندما انطلقت السيارة إلى البيت تذكرت شريفة كلمات الدكتور عبد الهادى عندما قال إن الأزمات بالنسبة للحياة الزوجية مثل التوابل بالنسبة للطعام : قليل منها يفتح الشهية وكثير منها يفسد طعمه . وتضرَّعت إلى الله بألّا يكثر من مشاكلهما بعد أن أدركا قيمة النعمة التى بين أيديهما ، فى حين كانت الشمس تفرش الشوارع بالدفء برغم برودة نوفمبر .

﴿ انتهت ﴾

للمـؤلف

1 ــ توابل الحب
2 ــ جبروت امرأة
3 ــ سور الأزبكية
4 ــ سوق الجوارى
5 ــ الجيل الضائع
6 ــ عصر الحريم
7 ــ غرام الأفاعى
8 ــ المذاهب الأدبية (فى النقد ــ يدرس فى الجامعات)
9 ــ قلعة الكبش
10 ــ شق الثعبان
11 ــ درب الشوك
12 ــ الكـودية
13 ــ النقـد الفنى
14 ــ بحر الظلمات
15 ــ معالم الأدب العالمى المعاصر
16 ــ فن التأليف الروائى
17 ــ البصرة حبيبتى
18 ــ أبنـاء الرعـد
19 ــ عاشقة الضباب



رقم الإيداع ٤٢٦٦ / ١٩٩٣
الترقيم الدولى7 - 0788 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه